

العدد الثاني - جمادى الآخرة ١٤٣٤

ملف العدد

وثيقة المرأة

وثيقة مناهضة العنف ضد المرأة واليوفيميزم
وثيقة العنف ضد المرأة.. الشريعة لم تصل بعد!
تحفظات غير إسلامية على اتفاقية "السيداو"

طاهرة عامر / حسام عبد العزيز / كريم الشاهد

طعم الإيمـان

د. محمد علي يوسف

لن تحكمنا أمريكا بعد اليوم

حسام أبو البخاري

هذا الإنسان وذلك البيان

وجدان العلي

هدية العدد

كتيـب
لتبيننه للناس ولا تكتمونه

محمد عبد الواحد



محتويات العدد

هيئة التحرير
أحمد سالم - خالد بهاء - عمرو بسيوني - محمد عبد الواحد

مدير التحرير
معتز رضا زاهر

تصميم وتنفيذ
شادي عاطف | شركة Active للدعاية الرقمية والإعلان المطبوع

المدونة: http://alhorras.wordpress.com
فيس بوك: facebook.com/AlHorras
تويتـــــــر: twitter.com/ALHorras
البريدالإليكتروني: horras.sh@gmail.com



الحمد لله وحده ..

لا يمكنك أن ترد واقع التجريف الثقافي وضحالة الوعي المنتشرة بين المسلمين اليوم إلى عامل واحد.
الظروف السياسية والاقتصادية، ومناهج التعليم، والأمية التربوية، وخنق الاستبداد للمجتمع ومحاصرته له= كل تلك العوامل وغيرها ساهمت في هذه النتيجة المحزنة والخطيرة في الوقت نفسه.

وساهمت الثورة المصرية والمتغيرات الاجتماعية والسياسية بعدها في زيادة واقع التجريف، وذلك بسبب التداعي المجتمعي تحت وطأة الحروب السياسية التي عاشها الناس خلال العامين الماضيين، خاصة مع انشغال كبرى الحركات الاجتماعية الإسلامية وغير الإسلامية في أتون السياسة الملتهب.

فسيلة المؤمن، الأشياء الصغيرة الفعالة، اجتماع النقط، طلب الفتح بطول الطَرْق، كل تلك المعاني هي ما يفتح للناس أفق الإصلاح رغم ضعف ما بين أيديهم من الإمكانات، وهي في الوقت نفسه ما يقطع عليهم باب العذر، إذ لا قعود حينئذ إلا من كسل وعجز.

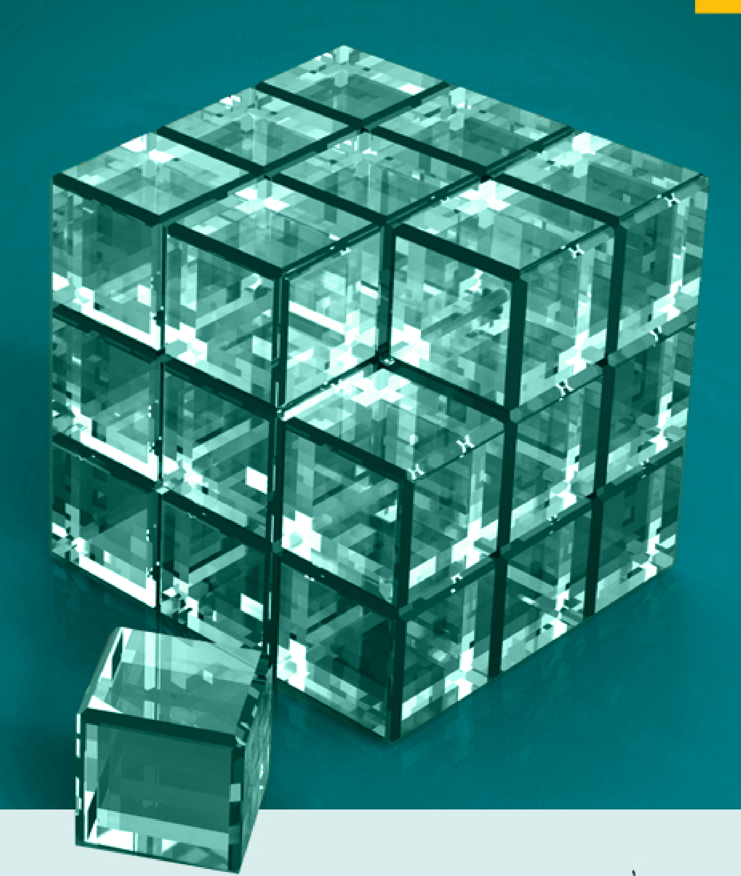
بين صفحات هذه المجلة ستقابلك مجموعة من الأقلام تكسر الحدود ولا تعرف غير الإسلام رابطة تجتمع عليها، لتشترك في هم أساسي واحد هو محور اجتماعهم بقطع النظر عن مواطن اتفاقهم واختلافهم الأخرى، إنه هم الثقافة والوعي، وسبل إعادة إخصاب هذه الأرض المجرفة، واستثمار ما فيها من بقايا البذور ومكاثرتها، وتعاهدها بالسهر والري، وقتل ما قد يعرض لها من الآفات التي تريد اغتيالها قبل أن تؤتي أُكُلها.

لم تجتمع هذه النخبة لتحملك على موافقتها الرأي، وإنما لتحرضك على تجويد صناعة الرأي.
لم تجتمع هذه النخبة لتصنع منك نسخة منها بل لعلها لا ترجو شيئًا كرجائها أن تكون نسيج وحدك.
لم تجتمع هذه النخبة لتلقنك أفكارها، وإنما لتقيم لك أمثلة في طرائق إقامة الأفكار، لتقيم أنت صروح أفكارك.

الدين والوحي والفقه والوعظ والأدب والسياسة والفلسفة والاجتماع والتاريخ وكل ما له صلة بتجويد صناعة التفكر ستجدونه بين جنبات هذه المجلة، تعاملوا معه على أنه بذور منثورة، وتابعوا معنا ومع غيرنا ومع أنفسكم مثنى وفرادى، وارتقبوا وقت حصاد ثمار أنفسكم بعد هذا البذر الطويل، وآتوا حقه يوم حصاده، واشكروا لله واعبدوه.

وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هيئة التحرير



التفاصيل والجمل

عصام البشير المراكشي

بسم الله الرحمن الرحيم

ما أكثر الأعمار التي تضيع، والأوقات التي تهدر، عند الملتزمين بدين الله، الطامحين لإقامة شرع الله في الأرض! ومع ذلك فما أقل الأثر، إذا قورن بضخامة الجهد، ونبل القصد!

والأسباب كثيرة، يكمّل بعضُها -في مجال هدم النجاعة- بعضَها الآخر، ولكن أخطرها: ضعف التأطير الفكري المنهجي عند التناول اليومي لأحداث الواقع، والانخراط التام في ممارسة الوقائع اليومية أو تحليلها، مع الانفصال الكامل عن الوعي بالقواعد الكلية التي تنتظمها.

أهمية فقه الواقع

وقبل أن أبين خطورة هذه الآفة الفكرية التي تمنع النجاعة، وتحرم العاملين من الثمار، لا بأس بالتذكير بأن العلم بالواقع بل حسن تفهمه والتفقه فيه شرط لا محيد عنه لمن أراد تنزيل الأحكام الشرعية، وإعادة الشريعة لدورها في التحكم بدفة الأفراد والمجتمعات، ومصالحة حاضر الأمة المنحط بماضيها المجيد.

ولا ريب أن المناداة بتطبيق الشريعة مع الجهل بالواقع -بسيطًا كان هذا الجهل أو مركبًا-شعار منبت عن التأثير؛ ودوره في دغدغة المشاعر أظهر من نتيجته في حصول التغيير المنشود.

وقد ذكر علماؤنا المتقدمون أن فهم الواقع شرط في الفتوى والاجتهاد، لا يقل في خطره عن شرط معرفة الحكم الشرعي المستفاد من الوحي.

ولخص ابن القيم رحمه الله ذلك بقوله:

"ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما: فهْم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع، بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علمًا.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع, وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر".[إعلام الموقعين 1/87]



وإذا كان أكثر الناس اليوم لا ينازعون في هذا الأصل من حيث المبدأ، فإن تحصيل هذا الفهم تعتوره -عند التطبيق- آفات كثيرة، تجعله جهلًا في سربال العلم!

فعن أي فهم للواقع نتحدث؟

جرد الحال

في خضم الثورة المعلوماتية الهائلة التي صار العالم يرزح تحت وطأتها، لم يعد لأغلب الناس مندوحة عن المتابعة اليومية للأحداث المستجدة السريعة. وهذه المتابعة تستنزف من الأوقات والجهود ما يصرف عن الجهد الفكري الشامل، الذي يضع للوقائع الإطار العام الذي تتحرك داخله، وتفهم من خلاله، فيسهل تحليلها وتوقع الآتي منها.

هذا في مجال متابعة أفعال الآخرين، وأما في مجال العمل الذاتي فالأمر لا يخالف هذه الصورة القاتمة؛ فإن العاملين ينشغلون بجداول النشاط اليومي المزدحمة، فلا تظهر لهم الأخطاء حين وقوعها، بل لا يبقى لهم الجهد الكافي ولا الرغبة الصالحة للتقويم والنقد الذاتيين، لا في الوسائل ولا في الغايات.

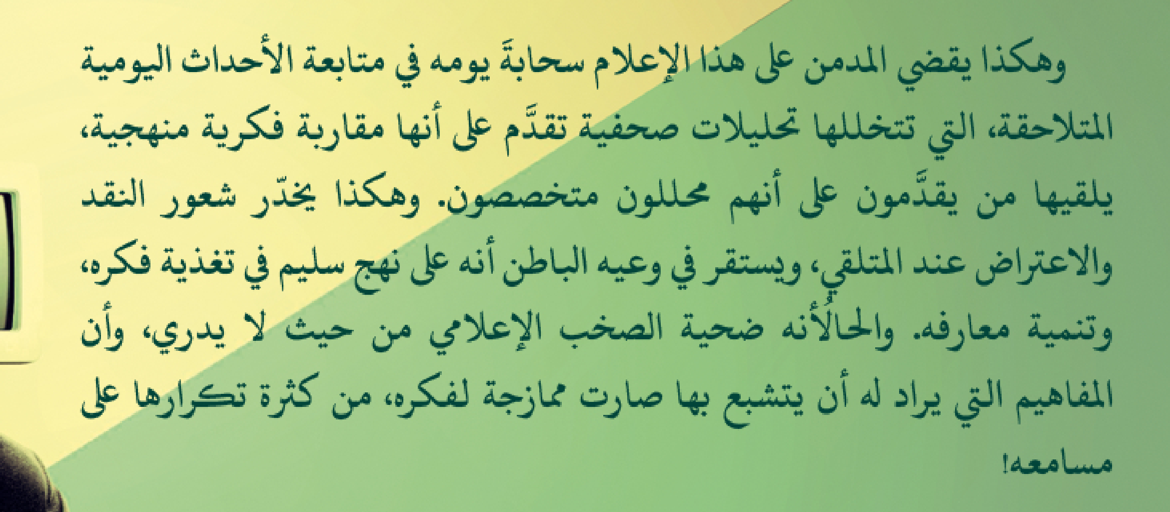
وهكذا يعيش الناس اليوم بين حالين:

- حال الانشغال التام الصارف عن التفكير المنهجي.
- حال النقص العلمي المفضي إلى الحيرة والتردد.

فالأول مثل القاعد على صخرة عالية، يراقب منها تحرك المراكبفي لجج البحر، بين مقبل ومدبر، وهو في ذلك لا يميز المصيب في سيره من المخطئ. والثاني مثل المقبل على دفة سفينته، لا ينظر إلى أبعد منها، فهو ملتهٍ بها عن تدبر حقيقة مسيرته!

وللإعلام أثر..

والإعلام في عصرنا يزيد من تعميق هذه الأزمة الفكرية، فإن له طرقًا مسمومة في تجهيل المخاطبين، عبر إمطارهم بما لا يحصى من أوشاب المعلومات، التي لا ينتظمها عقد جامع.



وهكذا يقضي المدمن على هذا الإعلام سحابةَ يومه في متابعة الأحداث اليومية المتلاحقة، التي تتخللها تحليلات صحفية تقدَّم على أنها مقاربة فكرية منهجية، يلقيها من يقدَّمون على أنهم محللون متخصصون. وهكذا يخدّر شعور النقد والاعتراض عند المتلقي، ويستقر في وعيه الباطن أنه على نهج سليم في تغذية فكره، وتنمية معارفه. والحالُأنه ضحية الصخب الإعلامي من حيث لا يدري، وأن المفاهيم التي يراد له أن يتشبع بها صارت ممازجة لفكره، من كثرة تكرارها على مسامعه!

وإذا كان التكرار الإعلامي قد يفضي إلى ترسيخ الكثير من المعاني والأفكار، فإن ردة الفعل العكسية التي تحدث لبعض الناس النابهين، تؤدي إلى رفض ما يأتي من الإعلام مطلقًا، ولو أن يكون صوابًا!

وهكذا يبالغون في الاعتراض، حتى يخالفوا لأجل المخالفة؛ وتنمو عندهم حينئذ نظريات المؤامرة، وملاحظة الأيدي الخفية في كل قول أو عمل!

مجالات يظهر فيها انعدام التوازن

وهذا التطفيف في ميزان المقابلة بين التأطير الفكري المنهجي، والحشد المعلوماتي، يظهر في ميادين كثيرة. ففي ميدان السياسة مثلًا، وفي مقابل المتدينين المنشغلين بالقضايا العلمية النظرية، والمنزوين في ما وراء المجتمع والدولة؛ ينطلق آخرون من قمقم العزلة إلى فضاء الانشغال اليومي بأحداث السياسة، في أدق تفصيلاتها. ثم يأكل هذا الانشغال أعمارهم، ويقتل قدرتهم على التمييز والتحليل، فيجدون أنفسهم -بعد حين- قد طحنتهم الوقائع، فهم يدورون في الفلك ذاته الذي يدور فيه عموم أهل السياسة، دون إضافة نوعية معتبرة.

وفي مجال القراءة والاطلاع العلمي والفكري، يهتم أصحاب هذا الخلل، بكل جديد تقذفه المطابع، أو تمجه الشبكة العنكبوتية، غثًّا كان أو سمينًا، دون منهج علمي يحدد الأولويات، ويرتب الاهتمامات. وبسبب من ذلك تبرز طائفة المتعالمين من مدعي التجديد والاجتهاد، فتجد لها جمهورًا وأتباعًا، ليس لهم من التأصيل ما يعصمهم من اتباع كل ناعق!

وفي مجال التأليف والبحث، يحشد الطالب أمامه ما لا يحصى من المعلومات المتناثرة، دون خيط جامع. ثم تكثر عليه هذه المعلومات حتى تقتله فكريًا، كما قتلت الجاحظَ كتبُه عمليًّا! وليراجع ما ذكره عبد الوهاب المسيري -رحمه الله- عن هذا الذئب المعلوماتي الهيجلي [رحلتي الفكرية ص: 179].
وقل مثل ذلك في الثقافة والأدب والعلوم الإنسانية والرياضة، وجميع مجالات الحياة المتنوعة.

خطورة غياب التوازن بين الكلي والجزئي

تفطن علماؤنا المتقدمون إلى خطورة الاستغراق في الجزئيات، وعدم حشدها في خانات كلية جامعة. بل إن الشرع جاء مع الكثير من التفصيلات، بالكليات والمقاصد الكبرى، التي يستنبط المجتهد منها ما لا يحصى من الأحكام الفرعية، في كل زمان ومكان.

وقد بين الشاطبي رحمه الله أن هذا هو معنى إكمال الدين المذكور في قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: 3] فقال: (.. فإنما المراد الكمال بحسب ما يحتاج إليه من القواعد الكلية التي يجري عليها ما لا نهاية له من النوازل).[الاعتصام-مشهور (3/376)]

واعتنى العلماء بالتقعيد والتأصيل في الفنون كلها، حتى ربما جاوزوا القدر المحمود، حرصًا منهم على التخلص من اضطراب الجزئيات وكثرتها. كما قال القرافي رحمه الله: "...ومن جعل يخرج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية، تناقضت عليه الفروع واختلفت، وتزلزلت خواطره فيها واضطربت، وضاقت نفسه لذلك وقنطت ... ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في الكليات، واتحد عنده ما تناقض عند غيره وتناسب".[الفروق،(ص 7-6)]

وكأن القرافي يصف حال كثير من الملتزمين اليوم، أمام مستجدات الواقع، حين تتناقض عليهم الجزئيات وتضطرب، وتضيق لذلك أنفسهم وتقنط!

"وقد يحوي التفاصيل من يستحضر الجملا"

كذا قال ابن مالك رحمه الله، منبهًا على أهمية استحضار الأحكام المجملة والقواعد الكلية.

وكذا ينبغي أن يقول العاملون لدين الله اليوم، بلسان الحال والمقال معًا!

وهذا يقتضي بذل الجهد في أمور كثيرة منها:

- تحصيل الدراسة الفكرية المنهجية المتدرجة، في مختلف الميادين التي يقع العمل فيها. فيعتني خائض غمار السياسة مثلًا بدراسة أصول علم السياسة والاجتماع والفكر والفلسفة. وكذا في المجالات الأخرى.
- تحري وضع الخطط والدراسات النظرية، قبل خوض غمار العمل. (وغني عن الذكر أن التخطيط لا يمنع من مراعاة المرونة في تغيير الخطط، بحسب ما تمليه ظروف الواقع).
- وضع الأطر الفكرية العامة، والنماذج التفسيرية الكلية، ومحاولة إرجاع كل أنواع الاختلافات والجزئيات لها.
- الحرص على البحث عن النظائر والفروق، داخل المنظومة الفكرية التي تنتظم العمل.
- الانقطاع عن إعلام الإثارة المعلوماتي، وعن المتابعة اليومية للأحداث في مراحل راحة، يعاد فيها شحن طاقة التحليل والتنظير.

والله الموفق.

مشكلة الضعف المعرفيّ

من أين نبدأ؟

خالد بهاء الدين (الأزهري السلفي)

أحمد الله عز وجل وأسبح بحمده، وأصلي وأسلم على نبيّه وعبده وآله وصحبه من بعده، وبعد:

فثم ثلاثة أركان أساسية لسلوك المنهج العلمي في حل مشكلة ما:

الأول: حدّ المشكلة حدًّا صحيحًا دقيقًا بتحديد ما هو من ذاتياتها، دون الإغراق في الانشغال بمظاهرها وأعراضها أو آثارها.

والثاني: دراسة أسبابها وأصولها التاريخية، ومراحل تطورها.

والثالث: رصد المعوقات في طريق حلّها وكشف سبل التعامل معها.

ولا شكّ أن هذه الثلاثة - وغيرها- لاحقة على الإقرار بالمشكلة!

وأنا أعلم أن بعض الحالمين - أو المغالطين -غيرُ مقرين بمشكلة الضعف العلميّ، والضحالة المعرفية العامة في القطر المصريّ - على الأقل - في شتى الجوانب؛ مع كونها واضحةً، وحادّةً، وعويصة. كما أن بعضهم الآخر لا يرى الأمر بذاك السيّء.

غير أن الانشغال بالجدل مع هذه الفئة أو تلك بات ضربًا من الجدل العقيم، في ظل الوضوح التامّ للمشكلة وقدْرها، ويمكن القول بأن هذه الفئة أو تلك إنما أتيت - غالبًا - من ضعف وضحالة التصوّر لنفس مفهوم العلم والمعرفة، وضيق الأفق في حصر مجالاتها، فهم - مع هذه الحال - أيضًا أحد مظاهر الضعف العلمي والمعرفي!

ولستُ أستحضر الساعة بابًا من أبواب المعرفة والعلم يمكن استثناؤه من هذه الحالة المزرية الطاعنة في الضعف والوهن.

ومع ذلك؛ فإني أقرّ بوجود حالة من عدم المبالاة العجيبة لدى راصدي هذه الظاهرة بالغة الخطورة، مع أنها تستحق أن تكون في صدر الاهتمامات، بحيث تُفرد بالدراسة والتحليل والتتبع والعرض، عسى أن يطلق ذلك شرارة حراك وجدل حول المشكلة،أملًا في الوصول إلى حلول عملية تدخل حيز التطبيق يومًا من الدهر.

ولا يُخرِجُ من حالة اللامبالاة: ما يقوم به بعض المحسنين من وقت إلى آخر من افتتاح معهد علميّ هنا، أو مركز بحثٍ هناك، فقد أثبتَ الواقعُ العمليّ في سنوات غير قصيرة خلَتْ: أنّ هذه المعاهد والمراكز لم يكن منتوجها يومًا مكافئًا لما ينفق فيها من أموال وأوقات وجهود، أو ما تستعلن به من دعاية، بل؛ كان منتوجها الضعيف من أنصاف المتعلمين -على أحسن تقدير - سببًا مباشرًا في تأكيد الضعف والتخلّف في أبواب العلم المختلفة.

بل؛ الاستمرار في سلوك نفس هذه الطرق التقليدية وغض الطرف عن فشلها، واستمرار الانشغال بها، وإنفاق الجهود والأموال والأوقات عليها يعدّ أكبر المعوقات في طريق حل المشكلة.

ولعلّ من أهم أسباب التي لها أبلغ التأثير في استفحال المشكلة؛ بحيث لا يمكن سلوك طريق في حلّها دون تعنّي الاعتناء به؛ مايمكن التعبير عنه بـ«سوء الكشف عن المواهب وتوظيفها»:

فالمواهب الصالحة لاحتراف العلم والمعرفة، ومن ثمّ تصدّر مشهد القيادة الفكرية، والأخذ بزمام تلك الأمور في مختلف المجالات: لا يخلو منها قرن من القرون.

نعم؛ لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه، ولم يزل الأمر في انحدار وضعف، لكنّ من المحكّمات في التعاطي مع هذه القضية قولُ الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: 165]، قال ابن كثير رحمه الله: «جعلكم تعمرون الأرض جيلًا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، وخلفًا بعد سلف» اهـ، ونحوُه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم: «يحمل هذا العلم من كلّ خلف عدولُه ...» الحديث.

فالله - عزّ وجل - يخلُق في كلّ جيلٍ خلَفًا يحملون الراية بعد سلف، فليست المشكلة إذن في وجود المواهب أو (العدول) في الجيل - إن صحّ التعبير -، لكنّ المشكلة - من هذه الجهة - يمكن تحديدها في محورين أساسين:

الأول: عدم وجود طريقة للكشف عن هذه المواهب واستبيان قدرتها على الاستمرار والتطور.

والثاني: عدم السعي في صقلها وتوظيفها حيث تستحق إن قُدّر اكتشافها.

أما المبهر بالنسبة لي فهو أن (بعضهم) لا أقول في مرحلة: (ما قبل هذه المرحلة) من الرصد؛ بل أقول إنهم في ضدّ هذه السبيل جملة!

فهم لا يكتفون بعدم تعنّي البحث عن المواهب والكشف عنها، ثم السعي في تدريبها وصقل مواهبها، وإتاحة الفرصة لها للتطور والارتقاء، بل تجاوزوا ذلك إلى إهمال ما قد يظهر من المواهب، وتحديد مواهبهم، وتحجيم انطلاقتهم.



وأهم سبل هذا التحديد والتحجيم: أنه قد صار من المعتاد أن يوضعَ في مكان القيادة والتوجيه في المجالات المختلفة حفنة من الأغبياء، أو النمطيّين، وأصبح المعيار في التوظيف بمعناه الشامل - ولو في غير مواضع القيادة - تامَّ البعد عن الكفاءة والموهبة، قاصرًا على معيار الخضوع والتقليد الأعمى.

وصار من المعتاد في عدة أجيال متعاقبة قيامُ صراع بين خلف موهوب يبحثون عن الفرصة لحمل الراية، وسلف يأبون تسليمها، إلا في بعض الأحيان، ومع شروط قاضية بكبح هذه المواهب ودفنها!

أما هذه المواهب، فصار من يتطوّر منهم، أو يتدرّب، أو يَظهر ويفرض نفسه على الساحة؛ لا يفعل ذلك إلا بمحض مجهود فرديّ خالص، بلا أيّ نوع من التفاعل مع غيره، أو مع تفاعل تافهٍ غير مؤثّر!

ومجرّد الالتجاء إلى هذا الصراع: ردّة عن قيم التربية عند المسلمين في جميع العصور التي تتسم بالنهضة والتقدم، حيث كان السعي في هذه العصور حثيثًا في اكتشاف المواهب، وصقلها ودفعها إلى الصدارة، في شتى المجالات، دون اعتبار لوجاهة، أو نسب، أو سنّ.

والأمثلة على ذلك في مختلف العصور أكثر من أن تحصر، أعظمها في نفسي مثال جيش أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - الشابِّ ذي الثمانية عشر عامًا، الذي تأمّر على الشيخين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - بتولية النبي صلى الله عليه وسلم.

أما في الأعصار المتأخرة، فصار من المعتاد أن يستمر هذا الصراع حتى تيأس هذه المواهب وتخبو، أو تنصاع، وقلّ منهم من يدخل في الصراع المشار إليه، وقلّ من هذه القلّة الذي يستطيع تجاوزه، وإن حصل ففي عمر متقدّمة!
إننا بحاجة ماسّة إلى الكشف عن هذه المواهب وصقلها، وإمدادها بالمكونات الأساسية التي تصنع منهم جيلًا صالحًا لقيادة قرنهم في شتى المجالات، بدلا من تركهم يتكفّفون مصادر التعلم، وأسباب التطور، بل بدلًا من نصب راية العداء لهم. وأمسّ من حاجتنا إلى ذلك: حاجتنا الملحّة أن نجعل هذا مشروعًا على مستوى الأمّة، وأن نعيَ أن هذا هو المغذي الأساس لأي نهضة!

ولست أريد مجاوزة هذا المحور دون إشارة عابرة إلى أن بعض أولئك الصّادين عن هذه السبيل، قد بدا منهم بوضوح تام الحرص على مناصبهم، أو على الولاء لهم، دون أدنى اكتراث بمستقبل أمة! فلم يكتفوا بصدّ الموهوبين وسدّ الطرق أمامهم، بل؛ لم يقدّموا أيّ بديل آخر صالح للاستخلاف.

لقد وصلتْ بنا حال الضعف العلمي إلى درجة لم يعد مناسبًا معها مثل هذا التعاطي البارد مع المشكلة، بل يجب الإسراع في ندب الموهوبين ليستفرغوا وسعهم في التحصيل والإفادة فقط لا غير، محاولين بذلك إيقاف هذا النزيف الحاد، وكبح هذا الانحدار البالغ.

ومن الاقتراحات في جانب التعامل مع هذه المشكلة:

1. عقد الندوات والفعاليات وتكثيفها بما يتناسب مع اهتمامات الشريحة الأكبر من الشباب المسلم.
2. تكثيف عنصر التفاعل مع الشباب وتشجيعهم على التواصل وإبداء آرائهم وعدم تسفيهها أو الحط منها تحت أي مسمى، والكفّ التامّ عن أسلوب تكميم الأفواه العتيق.
3. السعي في استحداث طريق للتواصل مع من تظهر عليه أدنى أمارات الموهبة، وطريق لتواصلهم مع بعضهم بعضًا، وإيجاد طريقة لوضعهم على سلّم التطور واستكمال الأدوات.
4. الخروج عن النمطية والجمود في كل ذلك، بما يتناسب مع العصر، ولا يتعارض مع قيم الدين والمجتمع.
5. الكفّ عن الحساسية المفرطة تجاه تقديم الشباب لمرحلة الإبداع والإنتاج ولو في سنّ مبكرة، والتعامل مع الأمر على أنه واقع،فيكتفى بالتأكيد على بناء جسور من الثقة المتبادلة معهم، تتيح قبولهم النصح والإرشاد، والتصحيح والانتقاد.

وبعد؛ فمعلوم أنه ليس الغرض من هذا العرض المتعجّل الإتيان على كل ما يمكن ذكره حول هذا السبب الذي اعتقدتُه أهم أسباب التخلف العلميّ والمعرفيّ الملحوظ، بل إنني أعتقد أنه يستحق رصدًا دقيقًا، ودراسة مطوّلة، وتحليلًا مستقلًا، لكن؛ عسى أن تكون هذه الكلمات مساعدة على زيادة الاهتمام بالقضية والانشغال بها.

والحمد لله أولا وآخرًا.



موقف الإمام أحمد من إذن السلطان في تغيير المنكر

عمرو بسيوني

تمهيد

إن المقصود من تخصيص الإمام أحمد – رحمه الله – دون غيره بالدراسة في موضوع هذا البحث لا يرجع لأن له فيه قولًا منفردًا، وإنما يرجع ذلك بعد مكانته كإمام لأهل السنة إلى شيوع مفهوم خاطئ عن علاقة الإمام أحمد بالسلطة، واعتقاد بعض المعاصرين – متأثرين بظروف سياسية ودراسات استشراقية مبتسرة –أن الإمام أحمد من جنس علماء السلاطين – والعياذ بالله – فأردت بيان ذلك الوجه في فقه أحمد رحمه الله.

أما أصل المسألة فقد حكى بعض العلماء عليها الإجماع، قال الجويني: "لا يتخصص بالأمر بالمعروف الولاة، بل ذلك ثابت لآحاد المسلمين، والدليل عليه: الإجماع أيضًا. فإن غير الولاة من المسلمين في الصدر الأول، والعصر الذي يليه كانوا يأمرون الولاة بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، مع تقرير المسلمين إياهم، وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف من غير تقلد ولاية". [الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، للجويني، ص368]

وقال الغزالي: "استمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع بإجماعهم على الاستغناء عن التفويض، بل كل من أمر بمعروف فإن كان الوالي راضيًا به فذاك، وإن كان ساخطًا له فسخطه له منكر يجب الإنكار عليه فكيف يحتاج إلى إذنه في الإنكار عليه، ويدل على ذلك عادة السلف في الإنكار على الأئمة". [إحياء علوم الدين، (2/315)]

وقد نص الإمام أحمد في كثير من مسائله على جمهرة كبيرة من أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفقهها، ومن أجمع مسائله في ذلك ما جمعه الحافظ أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال البغدادي في جزئه المعروف (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، والذي يروي فيه عن طبقة واسعة من تلاميذ أحمد؛ ومن أجل ذلك فقد اعتمدته في جردي للبحث عن النقاط موضوع البحث، وإن كنت قد أخرج عنه للحاجة.

أولًا: تغيير المنكر باليد:

نصَّ الإمام أحمد كغيره من الأئمة على التغيير باليد كأحد مراتب التغيير، كما ورد في حديث المراتب الثلاث المعروف، ونصَّ أحمد أن التغيير باليد أفضل المراتب وأعلاها، قال: «نَحْنُ نَرْجُو إِنْ أَنْكَرَ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ، وَإِنْ أَنْكَرَ بِيَدِهِ فَهُوَ أَفْضَلُ» [الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،ص22]، وسُئِلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عَنِ الرَّجُلِ، يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ بِيَدِهِ؟ فَقَالَ: "إِنْ قَوِيَ عَلَى ذَلِكَ فَلَا بَأْسَ بِهِ". فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَذِلَّ نَفْسَهُ بِأَنْ يُعَرِّضَهَا مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ»؟ قَالَ: "لَيْسَ هَذَا مِنْ ذَلِكَ". [المصدر السابق، ص23]

واقتصرت على التغيير باليد في إيراد النصوص الآتية دون التغيير بالقلب واللسان؛ لكون التغيير باليد هو الذي قد يتوهم فيه الحاجة إلى إذن السلطان، دون غيره، فلا يتوقف عليه اتفاقًا.

ثانيًا: كيفية تغيير المنكر باليد:

تنوعت النصوص عن أحمد في كيفية التغيير باليد، بحسب الأحوال؛ فمنها ما يكون تفريقًا للمتقاتلين، ومنها ما يكون ضربًا، ومنها ما يكون كسرًا للخمر المحرمة، وآلات الطرب، والشطرنج، ونحو ذلك، وهذه بعض نصوصه.
قال أَبُو بَكْرٍ الْمَرُّوذِيُّ: كَيْفَ بِالْيَدِ؟ قَالَ: "تُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ". [السابق، ص22]، وروى أنه رَأَى صِبْيَانًا يَقْتَتِلُونَ، فَعَدَلَ إِلَيْهِمْ فَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ. [السابق، ص23]. وسئل عَنِ الْفِتْيَانِ، يَتَمَرَّدُونَ؟ قَالَ: «لَا بَأْسَ بِضَرْبِهِمْ». [ص48]

وسُئِلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عَنْ رَجُلٍ رَأَى زِقَّ خَمْرٍ أَيَشُقُّهُ؟ قَالَ: "يَحُلُّهُ". قِيلَ لَهُ: فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى حَلِّهِ؟ قَالَ: «فَلْيَشُقَّهُ إِنْ لَمْ يَقْدِرْ». [ص49]. وقال له أبو بكر المرُّوذي: لَوْ رَأَيْتُ مُسْكِرًا مَكْشُوفًا فِي قِنِّينَةٍ، أَوْ قِرْبَةٍ تَرَى أَنْ تُكْسَرَ أَوْ تُصَبَّ؟ قَالَ: "تَكْسِرُهُ". [ص50]

وقال عُمَرُ بْنُ صَالِحٍ:رَأَيْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ مَرَّ بِهِ عُودٌ مَكْشُوفٌ، فَقَامَ فَكَسَرَهُ. [ص54]، وسئل عَنِ رَجُلٍ، رَأَى فِي يَدِ رَجُلٍ عُودًا، أَوْ طُنْبُورًا، فَكَسَرَهُ، أَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ، وَمَا عَلَيْهِ فِي كَسْرِهِ؟ فَقَالَ: «قَدْ أَحْسَنَ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِي كَسْرِهِ شَيْءٌ». [ص56]. وفي بعض الروايات:فَإِذَا كَانَ مُغَطًّى؟ قَالَ: "لَا تَتَعَرَّضْ لَهُ إِذَا كَانَ مُغَطًّى. [ص50، وانظر ص51]، وفي بعضها مزيد فقه، سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ، يَرَى الطُّنْبُورَ أَوِ الطَّبْلَ مُغَطًّى، أَيَكْسِرُهُ؟ قَالَ: «إِذَا كَانَ بَيِّنَةٌ أَنَّهُ طُنْبُورٌ أَوْ طَبْلٌ كَسَرَهُ».[ص52]

ثالثًا: التغيير الجماعي للمنكر:

وردت نصوص عن أحمد ما يفيد التعاون الجماعي في تغيير المنكر؛ كالاستعانة بالجيران، والأعوان، ونحو ذلك.

سئل عَنِ الرَّجُلِ، يَسْمَعُ الْمُنْكَرَ فِي دَارِ بَعْضِ جِيرَانِهِ؟ قَالَ: يَأْمُرُهُ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَقْبَلْ؟ قَالَ: «تَجْمَعُ عَلَيْهِ الْجِيرَانَ، وَتُهَوِّلُ عَلَيْهِ». [ص38، وانظر الآداب الشرعية لابن مفلح (1/261)]

وسئل عَنِ الْقَوْمِ يُؤْذُونَهُ بِالْغِنَاءِ؟ فَقَالَ: "تَقَدَّمْ إِلَيْهِمْ، وَانْهِهِمْ، وَاجْمَعْ عَلَيْهِمْ".[ص31]

سئل عن صيادين يصطادون بالفأر والضفدع، قال: "ويفعلون ذلك؟ مرهم وانههم". قيل له: فإن لم يقبلوا مني؟ أستعدي عليهم السلطان؟ قال: "إن قدرت فاستعدِ عليهم، لعلهم ينتهون". [مسائل إسحاق بن هانئ، (2/175)]

وفي مسألة: رَجُلٌ تَكَلَّمَ بِكَلَامِ سُوءٍ يَجِبُ عَلَيَّ فِيهِ أَنْ أُغَيِّرَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ فَلَا أَقْدِرُ عَلَى تَغْيِيرِهِ، وَلَيْسَ لِي أَعْوَانٌ يُعِينُونِي عَلَيْهِ؟ قَالَ: «إِذَا عَلِمَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لِذَلِكَ فَأَرْجُو أَنْ لَا يَكُونَ عَلَيْكَ شَيْءٌ». [الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،ص18]. ولا إشكال أنه يستثني من ذلك حمل السلاح؛ فقد قال: «التَّغْيِيرُ بِالْيَدِ لَيْسَ بِالسَّيْفِ وَالسِّلَاحِ». [الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،ص23]

رابعًا: الرفع إلى السلطان :

ورد عن أحمد حظر رفع مسائل النهي عن المنكر وتغييره إلى الحاكم، ورغم وروده مطلقًا في كثير من النصوص إلا أن النصوص المقيدة تدل على أن هذا مختص بالحاكم الذي لا يثق الرافع إليه في كونه سيقيم الحد ولا يتعدى على الجاني بظلم، وهذا فقه حسن جدًّا.[راجع تلخيص ابن مفلح لظاهر روايات أحمد في هذه المسألة، وأوجه الأصحاب وما بينهما من تعارض، في آدابه (1/194-195)].

سئل:فَإِنْ أَمَرَهُ وَنَهَاهُ وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ، تَرَى أَنَّهُ يَسْتَعِينُ عَلَيْهِ بِالسُّلْطَانِ؟ قَالَ: "أَمَّا السُّلْطَانُ فَمَا أَرَى ذَلِكَ". [الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،ص31]

وقال عَبْدُ اللهِ بْنُ الطِّيبِ: كَانَ لِي جَارٌ يُؤْذِينِي، يَضْرِبُ الطَّنَابِيرَ وَالْعِيدَانَ، فَأَتَيْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، فَقَالَ لِي: "انْهِهِ"، فَقُلْتُ: قَدْ نَهَيْتُهُ، فَعَادَ، فَقَالَ: "هَذَا عَلَيْكَ"، فَقُلْتُ: السُّلْطَانَ؟ قَالَ: "لَا إِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تَنْهَاهُ".[ص32]

وسئل: أَذْهَبُ بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ؟ قَالَ: "لَا"، قُلْتُ: فَلَمْ يَنْتَهِ، يُجْزِئُنِي نَهْيِي لَهُ؟ قَالَ: "نَعَمْ، إِنَّمَا يَكْفِيكَ أَنْ تَنْهَاهُ".[ص30]. وقال مرة: "أَمَّا السُّلْطَانُ فَلَا، إِذَا رَفَعَهُمْ إِلَى السُّلْطَانِ خَرَجَ الْأَمْرُ مِنْ يَدِهِ، أَمَا عَلِمْتَ قِصَّةَ عُتْبَةَ بْنِ عَامِرٍ"؟ [ص32، وذكر حديثه ص33].

وقيل له: إِذَا أَمَرْتُ بِالْمَعْرُوفِ فَلَمْ يَنْتَهِ مَا أَصْنَعُ؟ قَالَ: "دَعْهُ، قَدْ أَمَرْتَهُ، وَقَدْ أَنْكَرْتَ عَلَيْهِ بِلِسَانِكَ وَجَوَارِحِكَ، لَا تُخْرِجْ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تَرْفَعْهُ لِلسُّلْطَانِ يَتَعَدَّى عَلَيْهِ". [ص31]

وسئل: "يُسْتَعَانُ عَلَى مَنْ يَعْمَلُ بِالْمُنْكَرِ بِالسُّلْطَانِ؟ قَالَ: "لَا، يَأْخُذُونَ مِنْهُ الشَّيْءَ وَيَسْتَتِيبُونَهُ".[ص30، وذكر قصة ابن عيينة واستحسنها، والقصة في الآداب لابن مفلح (1/257)، وانظر في الخلال ص34 قصة أخرى، عن الثوري لا ابن عيينة]

خامسًا: دلالة نصوص أحمد على عدم استئذان السلطان في تغيير المنكر:

تدل نصوص أحمد السابقة- وغيرها مما سيأتي -على عدم اشتراط أحمد استئذان السلطان في تغيير المنكر، من أربعة أوجه:

الأول: إنه لم يرد مطلقًا في نصوص التغيير المفردة والجماعية تصريح ولا إشارة لذلك.

الثاني: إنه وردت النصوص عنه بعدم استحباب الرفع إلى السلطان إلا في حالات قليلة، فيكون عدم استئذانه في التغيير قبله من باب أولى.

الثالث: ما ورد من نصوص عنه في استحسان تحمل الأذى المترتب مِنْ قِبَلِ السلطان على تغيير المنكر، ويستحيل عندها أن يتوقف التغيير على إذنه. فقد سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَرَى الطُّنْبُورَ أَوِ الطَّبْلَ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ تَغْيِيرُهُ؟ قَالَ: "مَا أَدْرِي مَا وَاجِبٌ، إِنْ غَيَّرَ فَلَهُ فَضْلٌ". قِيلَ لِأَحْمَدَ: فَإِنْ أَصَابَهُ مِنْ قِبَلَ السُّلْطَانِ فِي ذَلِكَ مَكْرُوهٌ تَرْجُو أَنْ يُؤْجَرَ؟ فَرَأَى لَهُ فَضْلًا، تَكَلَّمَ بِشَيْءٍ، كَأَنَّهُ يَغْبِطُهُ. [مسائل الإمام أحمد برواية أبي داود 371]

وقال أَبُو بَكْرٍ الْمَرُّوذِيُّ:إِنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ذَكَرَ مُحَمَّدَ بْنَ مَرْوَانَ الَّذِي صُلِبَ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ فَتَرَحَّمَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «قَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ». [الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص15]

وقال حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَذَكَرَ ابْنَ أَبِي خَالِدٍ، وَقَدْ كَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَرَفَ قِصَّتَهُ فِي إِقْدَامِهِ، فَقَالَ: «ذَاكَ قَدْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ». [المصدر السابق]

وذلك رغم ما ورد عن أحمد من سقوط وجوب التغيير عند الخوف، فقد سئل: "مَتَى يَجِبُ عَلَيَّ الْأَمْرُ؟ قَالَ: «إِذَا لَمْ تَخَفْ سَيْفًا وَلَا عَصًى»". [المصدر السابق]، بل ورد عنه: "لَيْسَ هَذَا زَمَانُ نَهْيٍ إِذَا غَيَّرْتَ بِلِسَانِكَ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِكَ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ". [السابق، ص20]

الرابع: ما روى الخلال أنه قيل له: مَا تَقُولُ فِي الرَّجُلِ يَكُونُ فِي بَعْضِ قُرَى السَّوَادِ، فَيَرَى فِيهَا الْخَمْرَ يَبِيعُهُ الْيَهُودِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ ظَاهِرًا، وَقَدْ عَلِمَ عَامِلُهُمْ وَالسُّلْطَانُ، فَهَلْ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ؟ قَالَ: "إِذَا كَانَ مِنَ السُّلْطَانِ لَيْسَ يَتَعَرَّضُ هُوَ". قُلْتُ: فَإِنْ رَأَى مُسْلِمًا قَدْ حَمَلَ شَيْئًا مِنْهُ؟ فَقَالَ: "الْمُسْلِمُ تَعِظُهُ وَتَقُولُ لَهُ، فَإِنْ أَبَى أَهْرَقْهُ". [ص53] .

ففي هذا النص المهم حالتان، في رجل وجد في أرض السواد خمرًا يبيعها اليهود والنصارى بإذن السلطان، فلم يفتِ أحمد بالتعرض لهم، وعلة ذلك واضحة ألا وهي إمكان تأول السلطان في ذلك، إذ يخالف بعض الفقهاء في مثل هذا للكتابي، ولكنه في حالة المسلم أفتى بالتغيير قولًا واحدًا، دون إرجاع شرط إلى علم السلطان أو إذنه من عدمه.



طعم الإيمان

الإيمان .. يا لها من كلمة، ما إن تُذكر حتى تشعر ببردها يسري من القلب لينساب بهدوء وسكينة إلى سائر مكونات الروح وثنايا النفس.

محمد علي يوسف

كلمة الإيمان كلمة حلوة! نعم حلوة، مذاقًا لا وصفًا، مذاقها حلو لأن مذاق مدلولها حلو؛ لكنها حلاوة يجد القلب مذاقها، وبها تلتذ النفس، ويطيب الوجدان، وتسمو الروح.

لقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجسد فى وجدان المسلم وشعوره معنى هذه الكلمة تجسيدًا مذهلًا فى أحاديث لا تحصى، حتى تكاد تلمس، وتتذوق، وتجد حلاوة المعنى فى فمك لطلاوة الوصف، وبديع المثال.

تأمل قوله صلى الله عليه وسلم: "ذاق طعم الإيمان، من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا "

وقوله:"ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدًّا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله كما يكره أن يلقى في النار ... "

وقوله:"ولا تجد امرأة حلاوة الإيمان؛ حتى تؤدي حق زوجها".

وكأني بحبيبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يشعرك بلذة تسرى إلى روحك، ويتذوقها قلبك كلما ذكرت هذه الكلمة، وليس فقط الطعم ولذته تشعرك بها كلمات الحبيب؛ بل حتى اللذة البصرية أرادك أن تشعر بها حين تسمع كلمة "الزينة" فى قوله: "اللَّهُمَّ زينا بزينة الإيمان"، ويستقر الإحساس أكثر حين تسمع قول ربك: ﴿ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمۡ ﴾ [الحجرات: 7]

تجسيد عجيب لهذا المعنى الأهم فى حياة كل منا ظهر فى كلمات لا تُحصى للنبي صلى الله عليه وسلم، أذكرها لعلها تكون محاولة يسيرة لنتذوق طعم الإيمان (الحلو)، ولنرى زينته ونشهد بهاءه بعين قلوبنا.

الإيمان:

تلك الكلمة التى حرص رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم على تجسيد معناها فى قلب وعقل المؤمن، حتى يكاد المتأمل يشعر أنه سيمسكه بيده، ويتذوقه بلسانه، ويشعر ببرده، وبشاشته فى ثنايا نفسه، كذلك كرر النبى تشبيه الإيمان بأمور محسوسة وملموسة؛ فتارة يشبهه بالحبل المتين الذى يشتمل على العرى المعقودة والموثقة؛ كما فى قوله:"أوثق عرى الإيمان الحب فى الله، والبغض فى الله".

وتارة يشبهه بالثوب كما فى قوله:"إن الإيمان لَيَخْلَق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم".[صحيح الجامع]

وليس أي ثوب؛ بل تجده يدقق التشبيه فيمثله بالحُلة، وهي من أفخر الثياب:"من ترك اللباس تواضعًا لله وهويقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي حُلل الإيمان شاء يلبسها".[صحيح الجامع]، وكم من مرة شبه الإيمان بشيء يُوزن ويُكال؛ فتجده مرة يقول:"وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل".وفي حديث آخر تجده يذكر مثقالًا لكمِّ الإيمان فى قلوب العباد؛ فيقول كما فى الحديث القدسي:"اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار".[صحيح البخاري] وتجده تارة ثالثة يمثله بشيء له كتلة تقسم وتنشطر؛ كما فى قوله صلى الله عليه وسلم:"الطهور شطر الإيمان".

بل ويشبهه النبي صلى الله عليه وسلم أحيانًا بالسحابة التي ترخي ظلها على من يكون تحتها؛ كما فى قوله عن مرتكب الفاحشة كيف أنه حال ارتكابها "خرج منه الإيمان، وكان عليه كالظلة، فإذا انقطع رجع إليه الإيمان".[السلسلة الصحيحة]

وهكذا تشعر أنك بصدد شيء له وزن، وحجم، وملمس، وظل تستظل به، والإيمان ليس شيئًا جامدًا أوساكنًا، ولكنه مشاعر تتحرك، ومعانٍ تتنقل، وأحاسيس تزيد وتنقص.

لقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم حركة الإيمان بمشهد سريع مباغت، مشهد أروز الحية، ورجوعها إلى مأواها، ومكان أمنها وطمأنينتها، كذلك الإيمان.. فإنه يأرز، ويعود فى النهاية إلى مأواه، ومستقره فى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كما فى قوله:"إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها".[رواه البخارى]

وهو يزيد، ويعلو منسوبه فى القلب؛ تزيده الأعمال الصالحة، وتعلي منسوبه تلاوة القرآن ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: 2] تأمل قوله تعالى:"زادتهم"، وتأمّل أيضًا كلمة"ليزدادوا" فى قوله جل وعلا: ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح: 4] تشعر أنك بصدد شيء يتحرك ويتغير منسوبه فى القلوب. يزيد! وما دام يزيد فإنه من الممكن أن ينقص؛ فتتعوذ بالله من نقصه، وتسعى دومًا لزيادته؛ فاللَّهُمَّ زد الإيمان فى قلوبنا.

وكما أنه يزيد، وينقص فإن له كلًّا، وجزءًا، وكمالًا وقصورًا، وحقيقةً ووهمًا، وقوةً، وضعفًا، وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فى أكثر من حديث فقال مرة: "لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في المزاحة، والمراء وإن كان صدقًا".وحدثنا عن أكمل المؤمنين إيمانًا مبينًا أنهم أحاسنهم أخلاقًا.وكلمنا عن حقيقة الإيمان فى قوله:"إن لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه". وبيّن لنا أن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وأخبرنا أن أضعف الإيمان أن ينكر المؤمن منكرًا بقلبه.

وأعجب وأهم تشبيهات الإيمان فى رأيي-والله تعالى أعلى وأعلم- هوتشبيهه بالمكان متسع الأرجاء ذي الطرائق والشُّعب، أو بالبنيان المشيد ذي الأبواب المتعددة؛ كما فى قوله صلى الله عليه وسلم:"الإيمان بضع وسبعون شُعبة؛ أفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان". وفى رواية صحيحة:"بِضعٌ وسبعون بابًا".

هل نظرت من قبل إلى الإيمان تلك النظرة الواسعة الرحبة؟

أبواب، وشعب، طرائق، وسبل. إن تعدد الشعب والطرق لا يكون إلا فى مدينة أوقرية، وإن تعدد الأبواب لا يكون إلا فى بناء ضخم أوقصر مشيد؛ بناء تعلوه كلمة التوحيد، وسلامة المعتقد، وأساسه العمل، ونفع المسلمين، ولو بإماطة أذى أو دفع ضرر عن طريقهم، وزينته الخلق الحسن، ولكل دين خُلق وخُلق الإسلام الحياء كما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأين نحن من مدينة الإيمان، وكم سلكنا من شعبها وطرقنا من أبوابها؟

إنك حين تنظر إلى الإيمان على أنه مدينة مترامية الأطراف عليك أن تسلك شعبها، وتسير في طرقاتها التي تزيد عن السبعين، أوتنظر إليه على أنه بناء شامخ يسر الناظرين، له أكثر من سبعين بابًا عليك أن تطرقها؛ فإن ذلك لا يجعل الأمر صعبًا أومعقدًا كما يظن البعض، على العكس، إن الحديث الذى بين الحبيب صلى الله عليه وسلم فيه أن للإيمان شعبًا وأبوابًا ضرب أمثلة لتلك الشعب فى غاية من اليسر على من يسرها الله عليه.

هل إماطة الأذى أمر صعب؟ هل الحياء أمر شاق؟ هل قول لا إله إلا الله وتعلمها والعمل بها أمر عسير؟ والله إنها كما قلت لأمور يسيرة على من صدق، وأخلص؛ لكنها على يسرها بينت حقيقة البعض، يتغافل عنها، بينت أن الإيمان مهمة حياة، بينت أنه مشوار يحتاج إلى أمرين رئيسين عندما تتعامل معه: إرادة، ومسؤولية، إرادة أن تسلك الشعب جميعًا، وأن يكون لك فى كل منها ولو سهم يسير، ومسؤولية نابعة من تقديرك أن الأمر عظيم، وليس بالتمني، ولكنه ما وقر فى القلب، وصدقه القول، والخلق، والعمل.

فإن توفرت الإرادة، وأردفتها بالعمل بعد أن أدركت قيمة المسؤولية فأبشر! إن الله لن يضيع البذل، ولا يقابل الإحسان إلا بالإحسان، وسترتقي بإذنه وكرمه فى درجاته، حين تسلك شعبه وتطرق أبوابه وتتمسك بحبله ومن ثم تجد طعمه .. طعم الإيمان!



"إن حكومة الإخوان تريد لنا أن نعترف بها، وتريد شراكتنا معها، ويجب أن نستمر في التعامل مع قادة مصر المنتخبين، حتى لو كان لدينا خلافات عميقة معهم، فنحن نفعل ذلك في جميع أنحاء العالم من أجل تحقيق مصالحنا". [تامارا كوفمان، أمام لجنة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بالكونجرس الأمريكي، 26 فبراير 2013م]

قابلَني عضوفي الهيئة العليا لـ"حزب النور" مبتسمًا، وقال لي: "الناس زعلانين منك"!

قلت له: أي ناس؟

قال لي: الناس في السفارة الأمريكية!

قلت له: وهل ذهبت للقاء السفيرة الأمريكية ؟

قال لي: نعم، وكان لقاؤنا رائعًا!

وكان هذا الحوار على خلفية رفضي دعوة للقاء السفيرة الأمريكية في القاهرة "آنا باترسون"!

مرّت الأيام وكنت أحضر لقاء مع نخبة من رجال السياسة والأحزاب، وجاء ذكر السفارة الأمريكية، وكيفية التعاطي مع الإدارة الأمريكية، خاصةً فيما يتعلق بالشأن الداخلي، فوجدت عضواً من حزب الحرية والعدالة يقول:"**يجب أن نتعامل مع أمريكا بكل احترام، لأنها أقوى دولة في العالم**"!

كل ما سبق مؤسف بالطبع، لكن الأكثر أسفًا هو أن يخرج مايكل منير -أحد أقباط المهجر وعميل سابق للمباحث الفدرالية الأمريكية-فيقول: كل من كنا نسمعهم من الإسلاميين يقول:"**الموت لأمريكا! كانوا معنا في احتفال السفارة الأمريكية بالقاهرة بعيد الاستقلال الأمريكي**"!! وبالفعل حدث هذا!

الإشكالية تكمن في أن خطاب أكبر كتلتين إسلاميتين في المشهد الإسلامي المصري لا يوجد فيه أي تصور للتعامل مع أكبر خطر يحدق بالإسلام والمشروع الإسلامي ومصر الإسلامية؛ أتكلم هنا عن المشروع الأمريكي الإمبريالي الصهيوصليبي!



هنا إذن إشكالية كامنةٌ، تتجلى في الخطاب الإعلامي، وفي المشروع السياسي! ولك أن تمسح التاريخ لكي تتأكد لديك هذه الإشكالية: فمثلًا تعددت مواطن النزال معِ المشروع الأمريكي في أفغانستان والعراق وغيرها، ولم نر لجماعة الإخوان المسلمين معركة جهاد واحدة تخوضها ضد هذا العدو الواضح والصريح، بل أحيانا تجد عكس ذلك تمامًا في تبني الجماعة للمشروع الأمريكي! كما حدث في العراق على يد طارق الهاشمي وزمرته في الحزب الإسلامي!

وعلى الجانب الآخر تجد الدعوة السلفية في الإسكندرية غير مكترثة في تنظيرها السياسي ولا في خطابها الدعوي ولا حتى في تدريسها للقواعد بأي تأسيس لموقف من الهيمنة الأمريكية والغربية بشكل عام على مصر والعالم العربي والإسلامي!

وبناء على ما سبق تستطيع فهم كلام الرئيس الأمريكي باراك أوباما من البيت الأبيض في أوائل أيام الثورة: "**أن الباب قد صار مفتوحًا أمام جماعة الإخوان لأن يكون لها دور في الحكومة القادمة، شريطة نبذ العنف والالتزام بالعملية الديمقراطية**"!

تصور معي جيلًا كاملًا من الإسلاميين تربى على جهاد الإسلاميين في أفغانستان والشيشان والبوسنة وفلسطين والعراق والصومال، ثم يرى تلك الممارسات وذلك التماهي وعدم الاكتراث.. **ما المتوقع في نظرة ذلك الجيل لهؤلاء القادة والمشايخ!**

وكيف تواجه تلك القيادات تساؤلات من نوعية:"هل نماذج طارق الهاشمي وحامد كرزاي وشريف شيخ أحمد تُنسخ الآن في مصر"؟!

وكيف تقدر تلك القيادات على النظر في عيون الشعب المصري وهى خارجة للتو من لقاء آن باترسون!

إن عقل الغرب الاستراتيجي مسكون بالصراع والحرب؛ فهو يرى -كما يقول ويل ديورنت-أن الحرب ثابت من ثوابت التاريخ، ولا يرى الآخر المخالف إلا "مادة للاستعمال"، وأن ضبط الداخل الغربي مرهون بالتعدي الخارجي!

نظرة فى تاريخ الغرب, سترى الداروينية في أبهى صورها, داروينية الذي لا يؤمن إلا بالبقاء للأقوى والأصلح،وذلك يجعلنا ندرك أن الحل مع من يراك عدوًّا هو أن تراه أنت عدوًّا، وإلا ستكون العاقبة وخيمة! ونماذج الهنود الحمر والأفارقة المهجَّرين والعراق ليست عنا ببعيد!

إن الثورة التي كانت تنادي في أيامها الثمانية عشر وترفع تقريرها للعالم عبر لوحات محمولة مكتوب فيها: "لن تحكمنا أمريكا بعد اليوم".هذه الجموع الثورية كانت تدرك أن الْمُستهدف من الثورة في حقيقة الأمر لم يكن "مبارك"، بل النظام، والنظام لا يعني مبارك ولا يعني"حبيب العادلي"، النظام يعني الهيمنة الأمريكية وتوابعها في الداخل.

وهذه الثورة التي أتت بالإسلاميين إلى سُدَّة الحكم حتى هذه اللحظة ثورة داخل الإطار، داخل الإطار الأمريكي, داخل الحدود الاستراتيجية الأمريكية,ومازالت تلعب طبقًا للمحددات الرئيسة للهيمنة الأمريكية عبر كل المستويات السياسية منها والاقتصادية!

وهذه الطنطنات التى نسمعها بين الحين والآخر من أن السياسة تتطلب هذه اللقاءات وتلك الاجتماعات؛ فصراحة لا أجد إلا ردًّا وجيهًا جدًّا لظريف من الظرفاء يقول: "إن البراز سيظل برازًا نتن الرائحة، ولو حاول البعض وصفه بأنه خلاصة وعصارة خبرة حياتية يومية للإنسان"!

ولكن السؤال التأسيسي هنا هو كيف يُقرأ كل ذلك التماهي وعدم الممانعة فى ضوء القواعد الشرعية في الولاء والبراء؟ أم نحن نرفض العلمانية نظريًّا، وعمليًا لنا قول آخر؟! أم يا تُرى نحن نستبطن العلمانية في رؤيتنا ولا نشعر بذلك؟! أم أن قواعد المصلحة والمفسدة أصبحت مثل آلات الموسيقى: من الممكن أن تعزف أي شيء فقط تحتاج لمن يجيد العزف؟! وكيف نقدر أن نجيب من يطعن على مواجهتنا لإيران والمشروع الشيعي ويسألنا: ولماذا لا تواجهون المشروع الأمريكي ؟! وسؤاله هذا له وجاهته!

دعوني أختم فى النهاية بقصة وليد الحاج المعتقل السوداني السابق في جوانتانمو، والذي كان يحكي فيها عما حدث له ولإخوانه في مأساة مذبحة جانجي -أفغانستان، نوفمبر -2001 والتي حوصر فيها المجاهدون هناك لأيام وماتوا من الجوع والغرق والقتل!

يقول وليد محمد حاج فى شاهد على العصر مع أحمد منصور 2010م: **"نعم، بعد ما أدخلونا في الكونتينرات أتذكر موقفًا لا أنساه أبدًا للصليب الأحمر، فتاة من الصليب الأحمر، الشباب جوعى عطشى، أتذكر هذا الشخص الذي كان أمامي، هذه الفتاة من الصليب الأحمر مدت تفاحة للأخ، الأخ أراد أن يأخذ التفاح، رفضت إلى أن يتم التصوير من قبل الكاميرات وهو يأكل هذه التفاحة من يد الصليب الأحمر! هذا الأخ لما وجد أن هذه الفتاة أرجعت التفاحة منتظرة الكاميرات تصور المنظر رفض أن يأخذ التفاحة منهم".** انتهى

انظر هنا! فتاة الصليب الأحمر لم تُرد أن تُعطي التفاحة لإنسان جائع لم يأكل منذ أيام إلا وهي تصوره؛ حتى تخرج الصورة كالآتي:**"المدنية الأمريكية في رقيها! تعطي الهمجيين أصحاب الوجوه الكئيبة تفاحة الحياة"**، وكأن مذبحة لم تقع منذ لحظات، وكأن مئات من الضحايا لم يسقطوا!



ولكن هكذا هي اللحظة الأمريكية! تريد أن تعطيك تفاحة الحياة؛ لكي تأخذ هي منك الصورة التي تصدرها للعالم عن نفسها!

إذن التفاحة مقابل المصلحة, التفاحة مقابل التدخل، التفاحة مقابل دوام الهيمنة, التفاحة مقابل بقاء النظام!

وإلى هنا تستطيع الرجوع إلى بداية المقال، وتقرأ كلام "ميشيل حنا"، و"تمارا كوفمان"؛ لتدرك لماذا صدرنا هذا المقال بتلك المقولات!

النموذج التركي وسؤال الشريعة

محمد توفيق

لاحت في فضاء الحالة الفكرية الإسلامية جملة من السؤالات المشكلة التي كانت تستلزم إجابات واضحة في حقبة مابعد الربيع العربي، خاصة بعد انتقال الإسلاميين في مصر وتونس من هامش المعادلة السياسية إلى مركزها؛ وكان على رأس هذه الأسئلة: أيُّ النماذج الإسلامية المعاصرة هو الأنسب لاستنساخه وتنزيله على واقعنا مابعد الثوري؟ وكيف هو المحتوى الإسلامي في هذا النموذج؟

لاشك أن النموذج التركي-المتمثل في تجربة حزب "العدالة والتنمية" بقيادة رجب طيب أردوجان- كان قد حقق درجة عالية من التسويق و"التبشير" لنموذج إسلامي ممتزج ومتعايش مع حالة علمانية راديكالية؛وبكثير من الاطمئنان يمكن القول أن الصعود التركي في المنطقة لم يكن ممكنًا بهذا القدر الترويجي الذي حظي به دون امتلاك نموذج قادر على المقارعة في "صراع النماذج" الدائر مع غيره من النماذج في الشرق الأوسط. ولم تعد المنافسات الإقليمية تجري فقط على صعيد الشعار السياسي/الأيديولوجي أو التقدم الاقتصادي/التكنولوجي، وإنما امتدت إلى ساحة نزال جديدة هي ساحة "النماذج المجتمعية" التي يقدمها كل لاعب إقليمي في المنطقة، وخاصة مع الغياب الكامل للنموذج العربي الإسلامي القادر أو حتى الراغب في مقارعة النموذج التركي.

ومن ثم فإننا هنا نسرد جملة من المعطيات الموزعة حسب اندراجها ضمن المكونات الأساسية لبنية النموذج التركي، ومنها نستنطق إجابة السؤال المطروح آنفًا.

المكون السياسي

يحسب لأردوجان وحزبه الخطوات الجريئة والناجزة التي حدَّت من بعض نفوذ المؤسسة العسكرية حامية العلمانية في تركيا، ومن البراعة السياسية أن تدار المعركة مع العسكر دونما صدام مباشر.



ويبدو أن أردوجان لم يكن خالي الذهن من إلف العسكر للانقلابات التي صدعت بنيان الجمهورية التركية على مدار سنين طويلة، كما أنه استحضر الحماسة المفرطة التي لازمته يوم أن كان رئيس بلدية إسطنبول، وغلبته عاطفته الجياشة للإسلام حينها، فأودت به داخل السجن، وحرمته من حقوقه السياسية فترة من الزمن.

هنا اعتملت الآلة السياسية للعدالة والتنمية على "تصفير المشكلات" في الداخل التركي، ولم تترك جبهة خصام أو نزاع داخلي إلا وسار الساسة في الحزب في طريق إنهائها أو تحييدها، وحصل التصالح مع الداخل التركي بمختلف مكوناته، فقد حصد "العدالة التنمية" في انتخابات 2007م: ٪60 من أصوات الأرمن، و٪54 من أصوات الأكراد، كما صوتت الغالبية من الأقلية اليونانية لصالحه، وعبَّر رجال دين مسيحيون عن دعمهم للحزب.[ظاهرة الإعجاب بالنموذج التركي في الخطاب السياسي العربي، معتز الخطيب، مجلة "شرق نامه" الصادرة عن مركز الشرق للدراسات الإقليمية والاستراتيجية – القاهرة، العدد السابع].

وبفضل هذه السياسات سارت تركيا في سياق من النضوج (الديموقراطي) والاستقرار الاجتماعي الداخلي المنتج لمؤشرات عالية على مستوى السياسة الداخلية.

أما على صعيد السياسة الخارجية، فالمحاور التي تمتد عبرها منابع التأثير الإقليمي والدولي لتركيا تتميز بتعددها وعمقها السياسي؛ حيث لعب الإطار النظري والمسار العملي "للعمق الاستراتيجي" -وهو عنوان الكتاب الذي خطه أحمد داود أوغلو وزير الخارجية التركي والذي يرسم جل السياسية الخارجية التركية واقعًا ومآلًا- للسياسة الخارجية التركية دورًا محوريًّا ومؤثرًا في تعميق وتمديد هذه المحاور، كما أن تنوع المحددات والمعايير التي تنبني عليها أشكال ومضامين العلاقة على كل محور من هذه المحاور بات أمرًا مائزًا وسببًا فاعلًا للتفوق التركي في سياساتها الخارجية.

بل استطاع المشروع الأردوجاني أن يتفاعل مع البعد الإسلامي للشعوب المسلمة من خلال البراعة السياسية التي مارسها في التعامل مع القضية الفلسطينية، ووظفت سياقات المواقف في سياق "إسلاموي" أريد به أن يكون كذلك، حيث تمثل هذه المقدمة مع غيرها من المقدمات والفرضيات نتيجة تتحدد من خلالها رؤية تبدو جلية لحقيقة النموذج التركي.

أمرٌ آخر يمثل عاملًا فاعلًا في تميز السياسة الخارجية التركية وهو التوازن الذي تقصدته سياسات "العدالة والتنمية" الخارجية في علاقاتها مع الشرق ومع الغرب، فقد ثابرت السياسة الخارجية التركية لتحقيق أعلى درجات التوازن والانفتاح على العمق العربي والآسيوي، الأمر الذي انتزعها من الصورة التي لازمتها من أنها مرتميةٌ في أحضان الغرب (يعد موقف تركيا برفضها المشاركة -الرسمية- مع الولايات المتحدة في اجتياح العراق في مارس 2003م هو أحد أهم المواقف التي هزت الصورة النمطية -بشكل ما- عنها في أذهان المشارقة)، كما أنه لم يستجلب سخطًا أو عداءً مع الحلفاء الغربيين، لذا بلغ المشروع الأردوجاني في الفترة الأخيرة قمة استحقاقات سياسة "الدبلوماسية النشطة" التي مارسها ساسة "العدالة والتنمية" في تركيا.

وهنا تبرز مواقف بطولية أبرزها ثلاثي "العدالة والتنمية" أردوجان وجول وأغلو تجاه قضايا غزة ومسلمي بورما، أضفت النكهة الإسلامية للسياسة الخارجية التركية، وكسبت مساحات واسعة من التعاطف والإعجاب من قبل شرائح كبيرة من شعوب العالم العربي والإسلامي المتعطشين لأمثال هذه المواقف.

والحاصل في الجملة أن تقييم المستوى السياسي للنموذج التركي قد يوزن بأوزان سياسية متقدمة جدًّا، لكنه على مستوى الفكرة الإسلامية يواجه إشكالية تقييمية منهجية، هي في الحقيقة مشكلة افتقاد الفكر الإسلامي المعاصر لنموذج دولة إسلامية قطرية معاصرة ومتكاملة الأركان، سواء على المستوى النظري أو على المستوى العملي، وبالتالي فليس هناك ثمة تطبيقات إسلامية معاصرة -محكمة الضبط الفكري والشرعي الواقعي- لقواعد وأصول السياسة الشرعية، بحيث يمكن بناءً عليها تقييم الممارسات السياسية -أي السياسة الداخلية والخارجية للدولة المعاصرة- للنماذج الإسلامية المعاصرة، ومدى قربها وبعدها من المضمون والتصور الإسلامي المحايث للواقع.

المكون الاقتصادي

مثّلت الطفرة الاقتصادية التركية الواضحة عاملًا رئيسًا في نجاح النموذج التركي بشكل عام، ولكننا على مستوى الطرح الإسلامي لا نكاد نلمس أية ملامح اقتصاد إسلامي-كما الحال في كل دول العالم الإسلامي تقريبًا- إلا من محاولات "نجم الدين أربكان" والتي سعى فيها سعيًا حثيثًا لجمع "الدول الإسلامية الثماني الكبار" (تضم: تركيا، مصر، إيران، نيجيريا، باكستان، إندونيسيا، بنجلادش، ماليزيا)، وذلك لبلورة تجمع اقتصادي إسلامي عالمي قوي ومنافس للرأسمالية الغربية، وكان من المتوقع أن يستتبعه تطورات وامتدادات سياسية واقتصادية إسلامية أكبر؛ الأمر الذي استثار المؤسسة العسكرية التركية لإجهاض المشروع في مهده بانقلاب نوفمبر 1997م. [الحركة الإسلامية في تركيا بين الأربكانية والأردوجانية، حسام تمام، ضمن كتاب مع الحركات الإسلامية في العالم]

ولذا فإن الاقتصاد التركي كباقي اقتصاديات العالم الإسلامي، لايزال تابعًا إلى حد كبير للسياسات الرأسمالية الغربية، شكلًا ومضمونًا، ويصعب تقييمه بأي نسبة محتوى إسلامي على المستوى الاقتصادي.

المكون الاجتماعي والثقافي والشرعي (الإسلامي)

يعد النشاط الاجتماعي والثقافي التركي من أبرز الأذرع التبشيرية للفكرة الإسلامية التركية، وتتنوع أنماط وأشكال النشاطات الاجتماعية والثقافية التي تُمارس من قِبل الأتراك؛ فبين مراكز بحثية، ومنح جامعية، ومراكز ثقافية وتعليمية، ودور نشر، وأنشطة من قبل الملاحق الثقافية التابعة للسفارات التركية.

بينما تتمظهر هذه الأنشطة في صور أكثر عمقًا وتوغلًا في عقول العرب والمسلمين بالتحديد في حالة "الاستلاب الدرامي" التي تمارسه المسلسلات والأفلام التركية، ووفقًا لدراسة رصدها موقع "راديو سوا" أنه في عام 2011م باعت تركيا للخارج أكثر من10500ساعة من المسلسلات، شاهدها نحو150مليون مشاهد في 76بلدًا، ودرّت عليها 68 مليون دولار من العائدات؛ محتلة بذلك المرتبة الثانية عالميًّا على لائحة البلدان المنتجة للمسلسلات التلفزيونية بعد الولايات المتحدة مباشرة، وفي خطوة تعدّ سابقة اشترى التلفزيون السويدي حقوق عرض أحد المسلسلات التركية؛ لتكون السويد أولى دول الشمال التي تعرض على جمهورها مسلسلاً تركي الإنتاج.[المسلسلات التركية تصل إلى اسكندينافيا، قيس قاسم، موقع جريدة الحياة، الأحد 17 فبراير 2013م]

وتركيا على هذا المحور تمارس غزوًا ثقافيًّا مخالفًا جملة وتفصيلًا لكل الصور الإسلامية الممكنة، حيث تعج هذه الدراميات بصور الرومانسية المضاهية لمستويات الدراما الرومانسية الغربية بما تحويها من محتوى إباحي مرتفع.

بينما على صعيد المراكز البحثية والتعليمية وكذا المنح الجامعية التركية نجد قدرًا من "الإسلاموية" المبثوثة في أدبيات ومخرجات هذه المؤسسات؛ حيث تتوغل الأذرع "الجولونية" داخل عدد من تلك المؤسسات، ما يعني حضور الفكرة الإسلامية بقدر متوسط في أوساطها، كما أن فكرة إنشاء مدارس دولية في بعض دول الشرق الأوسط أخذت تحصد قدرًا من القبول المجتمعي للمجتمعات العربية بالتحديد، التي وجدت ضالتها في مستوى تعليمي متقدم ومصطبغ بصبغة إسلامية.(منها على سبيل المثال: مدارس صلاح الدين الدولية بمصر، ومدارس البرج بالأردن، والمدرسة التركية باليمن، والمدرسة السودانية التركية بالسودان، وغيرهم).

وبين التخالف الحاصل في مسالك التبشير الثقافي والنشاط الاجتماعي التركي نجد غلبة بقدر ما للتغريب الدرامي الذي تمارسه المسلسلات التركية في عقول العرب والمسلمين، بينما نرى أثر المنح الجامعية والمراكز الثقافية والتعليمية قاصرًا على النخب والمثقفين والمهتمين، وإن كان ينتظر منها أثر أكبر على المدى الطويل. ولكن في كل الحالات يبقى المحتوى الإسلامي الواضح والمقبول غائبًا في الحراك السوسيو-ثقافي التركي المعاصر.

وإذا نظرها إلى الوسط المعرفي التركي فإنا نرصد مؤشرًا في غاية الأهمية، ألا وهو الفقر الشديد في الدراسات والبحوث المعرفية المتعلقة بالدين، أو ما هو معني بعلوم الدين ذاتها؛ فعلى الرغم من الحضور الإسلامي العثماني في وجدان الكثيرين من الأتراك، إلا أن العناية بعلوم الدين الإسلامي وما يتعلق ويرتبط بها من معارف وعلوم إنسانية أخرى تعد متدنية جدًّا بالمقارنة بما يجب أن يكون في دولة صاعدة ومؤثرة بنموذجها الخليط بين الإسلام والعلمانية، وما يستلزمه ذلك من دعاة المشروع التركي من دراسة وبحث وتحليل بل وتفلسف يتطلب التنظير والتأصيل العلميين من الناحية الشرعية الإسلامية، وبالتالي ترجمة ذلك من خلال محاضن الفكر والعلم في الجامعات والمراكز البحثية؛ وهنا يتبين افتقار الفضاء الفكري والشرعي التركي لمساحة من الأدبيات الفكرية والشرعية التنظيرية التي تتداول أسس الدين وأصوله؛ فمن من المعلوم أن التعمق في علوم الشريعة الإسلامية يتطلب قدرًا كبيرًا من التمكن من علوم اللغة العربية، وهو الأمر العسير على مجتمعات وضعت تحت مؤثرات علمانية وتغريبية قوية؛ كما أن علوم أصول الفقه، والقواعد الفقهية، ومصطلح الحديث وعلوم الرجال، هي في الحقيقة علوم معتمدة على عمق فهم لعلوم اللغة والمنطق، الأمر الذي أزعم أنه يكاد يكون غائبًا عن مجتمع بحال المجتمع التركي.



لا يستلزم ذلك نفي قدر من التدين المقبول لدى الأتراك،[للمزيد انظر: مراجعة لكتاب التدين في تركيا: الإيمان وأنماط الحياة من خلال التجاذبات الاجتماعية، مجموعة مؤلفين، مراجعة: غمزة كوشجن، ترجمة: علي بكير، مركز الجزيرة للدراسات] إلا أن قدر وشكل حضور الإسلام داخل المجتمع التركي مرتبط بعاملين أساسيين، الأول هو عملية "علمنة الدين" التي مورست على مدار عمر الجمهورية التركية الحديثة، حيث تم اختزال الدين في الواقع التركي إلى أصغر صورة ممكنة حتى بلغ التطرف العلماني أشده تجاه كل مظاهر التدين؛ فلا حق لمحجبة في دخول المدارس والجامعات والمجالس النيابية، ولا حق لمسلم بأن يستعلن برؤيته الإسلامية في أي ممارسة سياسية أو اقتصادية، ولا يجوز لأحد أن يعترض على انتشار مظاهر التحضر "العلماني" من تصاريح الدعارة وبيع الخمور وغير ذلك من مظاهر التعلمن والتغريب؛ هنا أصبحت مساحة الدين مساحة مختزلة محاطة بممنوعات قانونية ودستورية صارمة، لدرجة القبول والترحاب الإسلامي البالغ بحجاب زوجة رئيس الجمهورية عبد الله جول وزوجة رئيس الوزراء أردوجان. الأمر الثاني هو البعد الصوفي في التدين التركي، وهو ما يمثل عاملًا مساعدًا على صيرورة الدين لحالته المعلمنة الحالية؛ فالناظر في التراث الصوفي وفلسفته على مر التاريخ الإسلامي يجد حضور الفصل المعنوي بين الروح والجسد بكثافة في الفكر الصوفي، وهو المتمثل بقوة في الفكر النورسي والجولوني؛ **هنا أستطيع الزعم بأن العلمنة والتصوف الإسلامي أنتجتا شكلًا من أشكال الإسلام العلماني الذي وسمنا به النموذج التركي.**

ما أردت بسطه هو أن فلسفة التصوف الإسلامي تقوم بشكل رئيس على التغذية الروحية التهذيبية للفرد المسلم، كما أنها تتميز بفصل مطرد وبارز في كل أدبياتها بين الروح والمادة (الجسد)، بل والميل الواضح نحو الاستكثار من العبادات والروحانيات، والانصراف عن المشغلات والمتاعات الدنيوية، وهو ما يمثل المدخل الذي تتسرب منه بعض أشكال العلمانية، ولذا فإن الربط بينهما يبدو منطقيًا، خاصة أن البنية الشرعية الأكاديمية التركية تبدو ضعيفة وهشة من الناحية التأصيلية كما أسلفنا، ودليل ذلك خلو الطروحات والمنشورات التركية من الدراسات الأكاديميةالتأصيلية والعميقة المتعلقة بأصول الشريعة وعلومها، بينما تحط على أرفف المكتبات ودور النشر التركية الدراسات والبحوث المعنية بأدبيات "بديع الزمان النورسي" و"فتح الله جولن"، حيث تكثر الكتابات والمباحثات والمطارحات الفكرية والفلسفية عنهما، كما أن إقامة المؤتمرات العلمية والندوات الفكرية يدور في رحى هذه الموضوعات أو يزيد قليلًا، الأمر الذي يشير إلى ما افترضناه من عوز يشوب النموذج التركي من حيث المضمون الإسلامي المعلمن، والشكل المفرّغ نسبيًا-بفعل الضغوط العلمانية- من الظواهر والمظاهر الإسلامية.

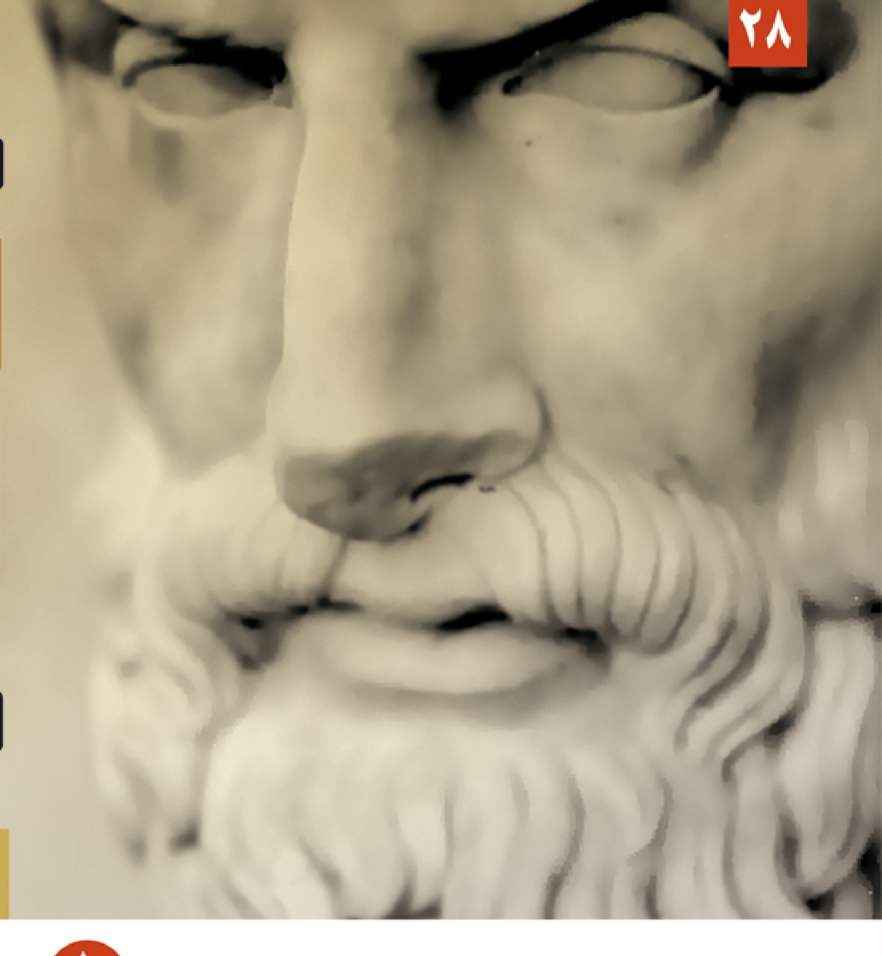
ثمة محاولات لا يمكن إغفالها من قبل "العدالة والتنمية" للاستعلان ببعض المظاهر الإسلامية، منها محاولات ترشح ودخول نائبات محجبات داخل أروقة البرلمان التركي، وكذا الحضور الواضح لزوجات قياديي "العدالة والتنمية" بحجابهن في المحافل الرسمية، خاصة زوجة جول وأردوجان. ويضاف لذلك مشروع إيقاف تراخيص بيوت الدعارة الذي تقدم به نواب "العدالة والتنمية" للبرلمان التركي مؤخرًا، كخطوة جريئة ومعتبرة لزيادة المنسوب الإسلامي للحزب، على الرغم من رفض مشروع القانون من قبل البرلمان.

يبقى هنا قدر ضئيل من الشكل الإسلامي تم تضخيمه في سياق تبشيري تسويقي للنموذج الإسلامي التركي؛ حيث أوصت مؤسسة راند في تقريرها عام 2008م أنه ينبغي على الولايات المتحدة أن تعد تركيا لتكون نموذجًا للإسلام المعتدل الديمقراطي، وتصدّره لبقية الدول في الشرق الأوسط

The Rise Of Political Islam In Turkey", Angel Rabasa, F. Stephen Larabee, sponsored by" the Under Secretary of Defense for Policy and was conducted within the International .Security and Defense Policy Center of the RAND National Defense Research Institute

الأمر الذي يعني بكل بوضوح تماشي النموذج التركي مع القيم التي يريد الغرب ترويجها للعالم الإسلامي، كما أنها استحسنت ما أختزل من مساحة الثوابت والقطعيات الإسلامية الغائبة في ذات النموذج.

بيد أن المكاسب التي حققها النموذج التركي على الصعيدين الاقتصادي والسياسي قد تكون عامل تحفيز وتخصيب لإيجاد مشروع إسلامي حقيقي وحضاري، قد تتمخض عنه حقبة ما بعد ثورات الربيع العربي.



موجز في الفلسفة الغربية قبل أفلاطون

أحمد سالم



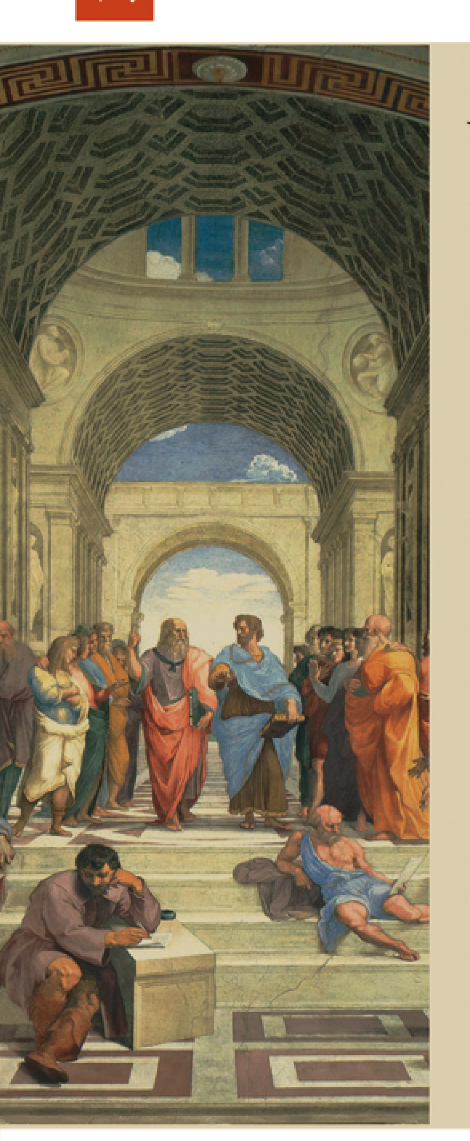
كانت الرؤية الأسطورية هي السمة المميزة للعقل الإغريقي لقرون عديدة، وتقاسمت الوثنية [وهي مزيج من الأساطير الأبوية للمحاربين الهندو أوربيين الذين غزوا هذه المنطقة وأساطير الأمومة لدى المجتمعات الأصلية الما قبل هلينية] والديانات الباطنية [ويطلق عليها أيضًا ديانات الألغاز وأشهرها: الأورفية-الديونسية-الأليوسية] المجال الديني الإغريقي لردح من الزمن طويل.

وتعتبر ملحمتا (هوميروس، الإلياذة والأوديسة) اللتان اكتمل نصهما المتداول في القرن السابع قبل الميلاد-هما النص المؤسس الكاشف للرؤية الأسطورية الإغريقية القديمة. كان هوميروس بملحمتيه وآلية نقلهما الشفاهية تجسيدًا جماعيًّا للذاكرة الإغريقية القديمة كلها.

وفي القرن الخامس الميلادي اكتملت مدونات الأساطير الإغريقية من خلال التراجيديات(المآسي) الإغريقية التي كتبها آيسخيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس.

كانت ثلاثية: الإلهة والطبيعة والإنسان، مع ثنائيات: الإرادة والقدر، والخطيئة والعقاب -هي الإطار الحاكم لنضال البطل الإغريقي، وحياته، وألمه، وموته أحيانًا.

"فالإحساس الحاد بالعالم المادي -بالبحار والجبال والصباحات، بالولائم والمعارك، بالأقواس، الخوذات، والعربات- كان مشحونًا ومخترقًا بالحضور الملموس للآلهة في الطبيعة والمصير الإنساني". [آلام العقل الإغريقي، (ص40)].



في ظل نظام المدينة الدولة حدث الانعطاف الكبير في مسار الفكر الإغريقي، هو التحول من الميثولوجيا إلى الفلسفة، من التفكير الأسطوري إلى التفكير العلمي المنطقي -مع الوضع في الاعتبار أنه لم يكن انتقالًا تامًّا-، يقول إرنست باركر في وصف هذه المرحلة العقلانية التي سينتقل إليها الفكر اليوناني: "بدلًا من أن يلقي اليونانيون أنفسهم في دائرة الدين، ويروا هذا العالم بعبارات إيمانية، كما فعلت ذلك شعوب الهند واليهود-اتخذوا مواقعهم في مملكة الفكر، وكانت لديهم الجرأة على الاندهاش من الأشياء المرئية وعلى طرح الأسئلة على أنفسهم بصددها، وسعوا لإدراك الكون على ضوء العقل، إن من السهل القبول بالعالم الطبيعي وبعالم المؤسسات الإنسانية باعتبارهما حتميين على حد سواء، كما أن من السهل عدم إثارة الأسئلة سواء حول معنى علاقات الإنسان بالطبيعة أم حول علاقات الفرد بمؤسسات مثل الأسرة والدولة؛ لكن مثل هذا القبول الطبيعي في كل الأزمنة بالنسبة للفكر الديني، كان مستحيلًا بالنسبة لليونانيين". [انظر (النظرية السياسية عند اليوناتن)، إرنست باركر، (ص61)].

ففي أوائل القرن السادس قبل الميلاد تبلور طرح مجموعة من الفلاسفة وهم اثنا عشر فيلسوفًا، يغطون الفترة بدءًا من القرن السادس حتى النصف الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد، وتتوزعهم على التوالي: المدرسة الأيونية، والمدرسة الفيثاغورية، والمدرسة الإيلية. ويعتبر طاليس (624 - 546 ق.م) أشهر فلاسفة أيونية، وهو أحد الحكماء السبعة الذين ظهروا في هذه الفترة. ويميل مؤرخو الفلسفة الى اعتبار لحظة الحكماء السبعة -وعلى رأسهم طاليس- هي اللحظة الأولى التي تؤرخ لولادة الفلسفة الأوروبية وبداية الشوط الأول من أشواط هذه الفلسفة، وكانت فلسفة هؤلاء الحكماء تُعنى بإصلاح النظم والأخلاق، وقد صيغت بعض حكمهم بعبارات موجزة ذهبت أمثالاً.

والمعروف أن طاليس كان قد زار مصر وبابل، واطّلع على المدونات الفلكية عند البابليين، ولها يعود مانُسِب إليه من معرفة بالفلك، وربما قوله بأن أصل العالم هو الماء.

ويندرج في هذه الفترة مجموعة أخرى من الفلاسفة عُرِف منهم: انكسيمندر (547-610 ق.م)، وانكسيمانس (524-588ق.م)، وهيراقليطس (475-540ق.م)، وفيثاغورس (497-572ق.م)، واكسانوفان (480- 570 ق.م)، وبارمنيدس (480-540ق.م)، وزينون الأيلي (430-490ق.م)، وانبادوقلس(430-490ق.م)، وانكساغوراس(-500 428ق.م)، ولوقيبوس(330-440ق.م)، وديمقريطس (460 361-ق.م).

ولم يصلنا شيء أساسي من أعمال هؤلاء الفلاسفة إلا شذرات يسيرة، وإنما أمكن التعرف على بعض آرائهم بواسطة المدونات التي صُنفت في فترات تالية؛ ومنها ما عرضه أرسطو من آرائهم في كتبه، ومن الكتب الجيدة عنهم بالعربية كتاب أحمد فؤاد الأهواني (فجر الفلسفة اليونانية).



في مدينة ميلتوس الإيونية بادر طاليس وخليفتاه آناكسيماندر وآناكسيمنيس يحدثون طريقة جديدة لفهم العالم تأثرت بالنتائج العلمية التي كانت شائعة في مصر والعراق، وبدأت من البحث في حالة التغير والتعدد التي عليها العالم، وهل يمكن أن يكون وراءها ثبات ووحدة من نوع ما، كانوا يبحثون عما يمكن أن نسميه حجر البناء أو العنصر الثابت المبدئي الذي صنع منه العالم، كانوا يبحثون عن الثابت خلف المتغير، والوحدة وراء المتعدد، فرأى طاليس أنه الماء، ورأى آناكسيماندر أن المادة الأولية هي اللامحدد أو غير المعين الذي تنفصل عه الأشياء المعينة، ورأى آناكسيمنيس أنه الهواء، وأتى بعدهما هيراقليطس وبارمينيدس ليبدأ بحثهما من نظريات ذلك الجيل الأول،

ولقد وضع بارمنيدس مذهبًا مؤداه أن الوجود واحد ساكن لا حركة فيه ولا انفصال، وهو الجذر الأول لوحدة الوجود في الفلسفة الغربية، ودافع زينون الإيلي تلميذ بارمينيدس عن مذهب أستاذه مستعملًا عددًا من المفارقات الجدلية المنطقية عن اللامتناهي، ثم وقف هيراقليطس موقفًا مناهضًا لهما ونادى بالتغيير والصيرورة والنار كمبدأ أول، والوجود كصراع بين الأضداد.

ثم جاء بعد هؤلاء فلاسفة تحاول التوفيق بينهم ومنهم أنباذوقليس وديموقريطس، وهو الجيل الأوسط وفيه إمبيدوقليس (430–483 ق.م)، الذي رد الكون لعناصر أربعة هي النار والهواء والماء والتراب، مع قوتين للاتحاد والتفرق: قوة البغض كقوة مفرقة وقوة الحب كقوة موحدة، أما أناكساغوراس فجعل العناصر الأصلية غير محدودة لكنه جعل القوة المحددة لحركتها واحدة وهي العقل/الروح، وأتى بعدهم ديموقريطس(370–460 ق.م) الذي جعل العالم أصله جزئيات ذرية لا تتجزأ تتحرك في فراغ، وهو فيلسوف مادي آلي.

بالإضافة لأولئك كان هناك الفيثاغورثيون وهي مدرسة تخلط ما بين الفكر الرياضي وبين الفكر الباطني الصوفي، وذهبت إلى أن العدد والنغم هما علتا الوجود والعالم, وقسم الفيثاغوريون الناس إلى ثلاث طبقات:

أ. الطبقة الأولى: طبقة الفلاسفة، وهي أحسن الطبقات وأكثرها خيرية، ويأتون للمشاهدة في الألعاب الأوليمبية .

ب. الطبقة الثانية: الذين يأتون للمشاركة في الألعاب الأوليمبية .

ت. الطبقة الثالثة: الطبقة الدنيا وكانوا يأتون للملعب للبيع والشراء .



بعد هذا أتت طبقة السفطائيين أو الحكماء وأشاعت نوعًا من الاستدلال المخاتل، الذي يقوم على الخداع والمغالطة وتزييف الحقائق. واشتهر من أعلامها بروتاغوراس(-484 410 ق.م)، الذي وفد إلى أثينا سنة 450 ق.م، وظهر له كتاب فيها باسم (الحقيقة)، أثار ضده موجة من الاحتجاج واتهم جراء ذلك بالإلحاد، فحكم عليه بالموت، إلا أنه هرب من الإعدام، فمات غرقًا. وكان يقول بأن المعرفة نسبية وليست مطلقة، وإن لكل قضية جانبين يناقض أحدُهما الآخر، ولاشيء أصدق من شيء، لكنه قد يكون أفضل منه بالقياس إلى منظور الفرد.

كذلك برز جورجياس(480 – 375 ق.م)من رجال هذه الحركة، الذي ألف كتابًا باسم (اللاوجود)، أثار فيه جملة مزاعم، يذهب فيها إلى أنه لايوجد شيء، وإذا كان هناك شيء، فإن الإنسان قاصر عن إدراكه، وإذا إفترضنا أن الإنسان أدرك ذلك الشيء فإنه لا يستطيع نقلهإلى الآخرين.

ورأوا أن الاشتغال بهذه المسائل الطبيعية غير مفيد وبذلوا جهدهم في نشر التربية العامة وتعليم الملكات والإمكانيات الذاتية، ونقدوا العقائد الذائعة.

ويمكن باعتبار ما أن نجد بذور أفكار عصر التنوير الأوربي في هذه المرحلة، بل بعض المصنفين في تاريخ الأفكار يسمون حقبة السفسطائيين بالتنوير الإغريقي.

وجَّه السوفسطائيون النظر إلى الإنسان لعدة عوامل دينية و اجتماعية و سياسية.

العامل الديني:

يرى السوفسطائيون أن الإيمان بالآلهة ذاتها إنما هو نتيجة الحيلة التي اصطنعها المشرعون والساسة لكي يلجموا العامة ويخمدوا بذور الجرائم التي لا ينالها القانون،والتي تخفى على التشريعات الوضعية، ومن ثم لم يعد للقانون قدسية دينية وإنما أصبح مجرد صيغ اتفاقية موضوعة من قبل بعض الناس لتحقيق مآربهم و منافعهم.
كان السوفسطائيون يهدفون من مهاجمتهم للدين واعتباره نسبيًّا أن يعلموا الناس أن ليس ثمة قانون إلهي ولا دولة إلهية، وأن يدعوهم إلى التحرر من سلطان الدين وجبروته،وأن يمارسوا حقوقهم السياسية بمنأى عن الدين، وبدون خوف من رجاله.

العامل الاجتماعي:

كان من أثار التنقل والترحال والحروب والتجارة أن أطلع الناس على عادات وتقاليد مخالفة بعضها أكثر نضجًا وتقدمًا من تلك الموجودة في المجتمع الأثيني،ومن ثم نادى السوفسطائيون بنسبية العادات والتقاليد والقوانين والعرف، ويمكنناملاحظة أثر هذا الترحال مرة أخرى على الثقافة المسيحية في عصر النهضة، وكيف ساهم في نشأة الأفكار النسبية التي مهدت للعلمانية ونزع القداسة.

العامل السياسي:

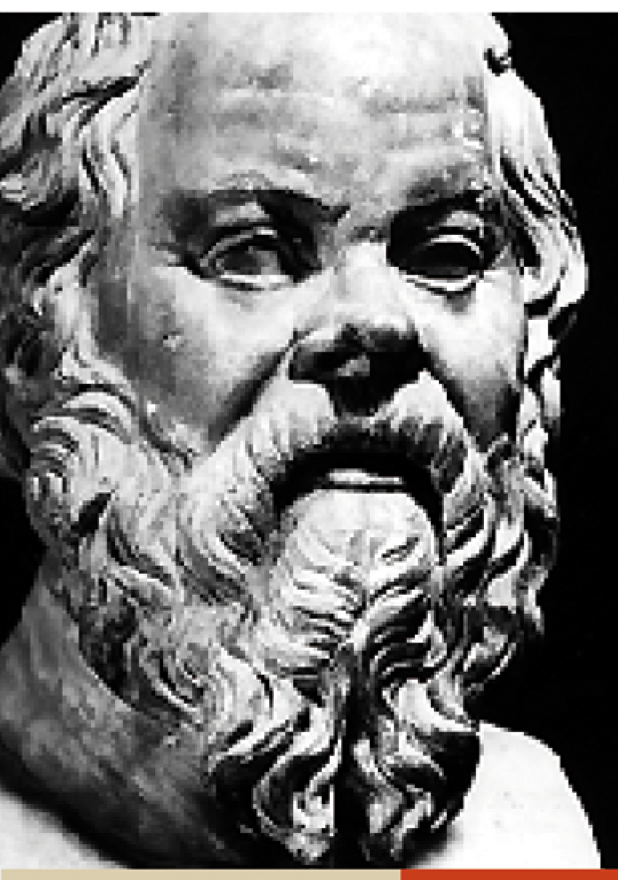
فلقد كانت الديموقراطية الآثينية قد بلغت أوجها في ذلك العصر، وكان على رجل السياسة أن يتسم بالقدرة الفائقة على الجدل والمناقشة والحوار والدفاع عن الآراء صحيحها وباطلها.

لقد كان السوفسطائيون أول من وجهوا النظر إلى الفكر السياسي؛ بل لقد كانت غايتهم من هدمقدسية الدين، ومناداتهم بنسبية القوانين والعرف والعادات والتقاليد، وتعليمهم للشباب على الجدل، ومنازلة الخصوم، والقدرة على إثبات القول ونقيضه في نفس الوقت -هو إعداد الناس للعمل السياسي.

وعلاوة على هذا فلقد ناقش السوفسطائيون مسائل سياسية من الدرجة الأول، مثل: الجدل السياسي،العدالة، السلطة الدينية والدنيوية، الانتخابات السياسية؛ولكنهم ناقشوا هذه المسائل من زاوية لا أخلاقية تروم تحصيل المنفعة بغض النظرعن الحقيقة.

ومن نظريات السوفسطائيين نظرية الحق للأقوى لكليكليس السوفسطائي، وهذه النظرية ترى أن يتغلب القوي على الضعيف مرتكزًا على قوته وجبروته؛ فهؤلاء يقيمون من أنفسهمسادة على الجميع، وهنا يسود القانون الطبيعي بين البشر وتتحقق نظرية البقاء للأقوى. والحقيقة أن السفسطائيين هم أشهر أمثلة عبارة رونالد سترامبورج: "إن تاريخ الفكر الغربي تاريخ من الاستمرارية أكثر منه تاريخ من الانقطاعات". وسبب كونهم مثالًا على هذا أن كثيرًا من أفكارهم ستقابلها بعد ذلك في مسيرة الفكر الغربي، كأفكار التنوير كما ذكرنا، وكفكرة خيرية الطبيعة التي نقابلها عند روسو، وكفكرة البقاء للأقوى التي نقابلها عند نيتشه.





يعود الفضل للفيلسوف الأثيني سقراط(399-469 ق.م)في القضاء على الحركة السوفسطائية، وتحرير الوعي اليوناني من الإرباك والتشويش والاضطراب في الرؤية الذي نشرته تلك الحركة. رأى سقراط في طريقة السفسطائيين نوعًا من البراجماتية النفعية التي تهدف إلى تعليم الناس ما ينتصرون به، ويتركون لكل شخص صياغة مفاهيمه عن الحق والخير ولا يطلبون ما هو فضيلة وحق في نفسه.

بدأ سقراط خطواته الإصلاحية بطريقة كانت مزعجة للخاصة ولكثير من العامة، إنها طريقة السؤال السقراطي الذي يختبر مدى سلامة الأسس المعرفية التي تؤسس عليها آراءك، ويظل يختبر رأيك بالأسئلة حتى يحشرك في زاوية ضيقة لا تملك معها سوى الاعتراف بأنك لم تبنِ رأيك هذا على أساس منهجي.

هاجم سقراط دعوة السفسطائيين لنسبية الحقيقة والفضيلة والأخلاق، ورفع من شأن المعرفة حتى جعل الفضيلة هي نفس معرفة الفضيلة، وأن من عرف الخير لم يخالفه إلى الشر.

تقابلنا فلسفة سقراط من خلال استعراض أفلاطون لها في محاوراته، مع وجود إشكالات في تمييز أقوال سقراط من أقوال أفلاطون التي نسبها لسقراط.

وقد افتتح سقراط بفلسفته مرحلة جديدة في ازدهار الفلسفة اليونانية، ومهّد لتلميذه أفلاطون تطوير هذه الفلسفة بصورة واسعة، انتهت إلى ذروتها على يد تلميذ الأخير أرسطو. يرى سقراط أن الإنسان روح وعقل يسيطر على الحس ويديره، وأن العقل هو أداة المعرفة وطريق إدراك الحقائق، وأن هذه الحقائق ثابتة في نفسها، وأن التعريفات هي الصياغات اللفظية للتعبير عن الحقائق،أن الفضيلة هي العلم، والرذيلة هي الجهل، ومن لا يعرف الخير لا يستطيع أن يتحلى به، وأن مجرد معرفة الرذيلة تكفي للنجاة منها.

لقد أحدث سقراط تأثيرًا هائلًا في الحياة العقلية عند أهل أثينا، مما أدى إلى حنق بعضهم عليه، فلفقوا ضده تهمة إنكار الآلهة الشعبية والاستهزاء بها، وإفساد عقول الشباب، فَحُكِمَ عليه سنة 399 ق.م بتجرع السم، وتوفي بعد أن تجرع سم الشوكران.

ملف العدد



تقرءون في هذا الملف

وثيقة مناهضة العنف ضد المرأة واليوفيميزم

طاهرة عامر

لا يُمكن بأي حال من الأحوال فَهم كل الإعلانات والمواثيق الأممية المتعلقة بشؤون المرأة دون ربطها ربطًا دقيقًا ببعضها، وكأنها أجزاء تُرصّص لإتمام لوحة كاملة تُسمى حقوق المرأة وتحريرها، وبذات القَدرِ لا يمكن قراءة هذه المواثيق دون رصد"اليوفيميزم" الجليّ في لغة المواثيق الأممية، واليوفيميزم هو التلطف أو التسميل اللفظي لكلمات تصف دلالات صادمة وإحلالها بأخرى.

جاءت وثيقة مناهضة العنف ضد المرأة الأخيرة لعام 2013م تكليلًا لجهود بدأت في أواخر الستينيات وتحديدًا عام 1967م، حيث اعتمدت الجمعيّة العامة للأمم المتحدة اتفاقية القضاء على التمييز ضد المرأة، وبدأت لجنة مركز المرأة في الأمم المتحدة سنة 1972 م استطلاع رأي الدول الأعضاء حول شكل إعلان دولي ومضمونه بشأن حقوق المرأة. وأنهت اللجنة المكلفة بصياغة نص الاتفاقية بمركز المرأة سنة 1979م إعداد النص،ثم جاءت مؤتمرات بكينعام 1995م وعام 2010م لتعيد التأكيد على ذات التوصيات وختمت في شهر مارس/آذار بوثيقة مناهضة العنف ضد المرأة.

الراصد للمواثيق السابقة يلحظ أن اللغة التي تُصاغ بها المواثيق تحمل تعبيرات موهمة ومحايدة، قد تنطلي على كثير من المتأثرين بالعبارات البراقة حول حقوق المرأة والتطور الإنساني، الذي أفرد حقوقًا مخصصة لأنثى الإنسان بعد إرساء حقوق للإنسان ككل، والهدف من هذا المقال رصد بعض الدلالات وراء التعبيرات التي وردت في الوثيقة.

ولمن لا يعلم الخلفية التاريخية فإن المنظومة القيمية الاجتماعية الغربية تنطلق بشكل أساس من نظرة مجافية للفطرة في علاقة الذكر والأنثى، فهي لا ترى أن العلاقة بينهما تنطلق من منطلق التكامل الثنائي والمهام التكميلية في دورة الحياة، بل على العكس من هذا، تنطلق هذه المنظومة من منطلق أن العلاقة بين الذكر والأنثى إنما هي علاقة صراع وجودي وتناطح بين حقوق الطرفين، كما أنها في الإجمال تسعى إلى إسقاط الحديث عن أي فروق بيولوجية بين الجنسين وتتجاهلها وتعتبر مجرد الحديث في شأن العبء البيولوجي للمرأة أو التكامل الوظيفي بين الجنسين رؤية رجعية تطمس المكتسبات التي حازتها المرأة منذ بدأت حركات تحرير المرأة **Woman Eman-cipation**، ومنذ أن برزت الحركات النسوية حول العالم. ومن ضمن مطالب هذه الحركات أن يعتذر التاريخ للمرأة باعتباره منتجًا ذكوريًا، وأن مقولة الرجل أقوى من المرأة يجب أن تتغير ويعاد قراءة التاريخ والمقدَّس والأعراف من نظرة نسوية بحتة، فالحركات النسوية ترى أن الرجل تفوّق على المرأة على مر التاريخ بعضلاته لكن المرأة -في منظورهن- هي الأقوى، لأن متوسط عمرها أطول من الرجل كما أنها تتحمل الأمراض والأعباء الاجتماعية أكثر منه.

ومن بين العبارات التي وردت في الوثيقة عبارة "إلغاء التشريعات والممارسات التي تميز ضد النساء والفتيات"الواردة في النص الإنجليزي على هذا النحو: (Abolishing practices and legislation that discriminate against women and girls)

ومن المعلوم أن الشريعة الإسلامية التي يُحتكم إلى قوانينها في الأحوال الشخصية في دول عربية عدّة تنطلق من رؤية العدالة، وأن الفارق البيولوجي بين الجنسين هو الذي يرسي قاعدة الحقوق والواجبات، وأن المساواة لا تكون بين الأشياء المتباينة. وعليه فإن فهم مدلولات العبارة يكشف لنا اصطدامها برؤية الشريعة الإسلامية في المساواة بين الذكر والأنثى.

كما ورد في الوثيقة أهم مصطلح أممي يشيع في مواثيق الأمم المتحدة وهو:(GenderEquality) أو المساواة بين الجنسين، ومصطلح (الجندر) في الأساس جاء ليدلل على أن الفوارق بين الجنسين إنما هي فوارق اجتماعية حتى لو اصطدمت بفطرة الإنسان؛ كأن تتحول مهام الأمومة ليقوم بها الرجل وتُسقط الفروق البيولوجية بين النوعين.



ومصطلح (الجندر) أو (الجندرة) بدأ شيوع استخدامه في فترة السبعينات بالاستعاضة عن مصطلح (Sex)؛ لأن الأخير يعبر عن الفروق الفسيولوجية بين الجنسين؛ بينما الجندر خضع للتعميم لأنه يرتبط بالفروق الاجتماعية التي يمكن أن تخضع للإبدال والتبديل في السياق البنيوي الاجتماعي؛ فعلى سبيل المثال مصطلح قوامة الرجل على المرأة من الممكن وفق المنظور الجندري أن يُسقط بالكلية وأن تكون حرية المرأة مطلقة ترفض سلطان الولي أو القيِّم على شأنها، ويشار إلى أن مصطلح القوامة العربي الأصيل من المفاهيم الإسلامية التي تعرضت "للانحطاط اللفظي" أو الـ(Pejoration) على يد كثير من الرموز النسوية العربية وأُكسِب دلالات سلبية ليصير بمرور الزمان من المصطلحات الغريبة ويثير النفور لدى قطاعات العوام كمفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصار التعبير عن القوامة يستدعي بالضرورة صورة الرجل ذي اليد الباطشة الذي يقوم بتأديب النساء اللائي يعولهن!

ويُضاف إلى تلك المصطلحات مصطلح الحقوق الجنسية والتكاثرية The sexual and reproductive rights، وهو مصطلح يدخل في إطاره العلاقات الجنسية المشروعة وغير المشروعة، ونصّ الاتفاقية على الحقوق الجنسية دون تفصيلها إنما يرمي إلى المساومة بين الزانية والمتزوجة، ويضاف إليه مصطلح The sexual violence الذي يندرج تحته إكراه الزوجة على المعاشرة من قبل الزوج.

نحن لا يعنينا كيف يُفسر العالم غير الإسلامي مواثيقه ويطبقها على نفسه؛ لكن عندنا مشكلة في تعميم مصطلحاته ومواثيقه علينا ووصف الدول غير الموقعة بأنها دول رجعية تحفل سجلاتها بانتهاكات حقوق الإنسان والمرأة، وعليه تُصبح معايير تكريم الإنسان وإهانته نابعة من الرؤية الأممية ووفقًا لرؤية جماعات الضغط النسوية، التي تضغط لفرض مفاهيم متطرفة في عداوتها لجنس الذكور وتعمل على إبدال فطرة المرأة.

وعلينا أن نتنبه إلى حقيقة لم يفطن إليها الكثير من أبناء جلدتنا وهو أنه بعد تراجع مكانتنا العسكرية والاقتصادية والعلمية والحضارية لم يبق لنا ما نحتفي بتفوقنا فيه إلا منظومة الأسرة، وأننا مازلنا نحتفظ بالرؤية الفطرية في العلاقة بين الذكر والأنثى وأنها علاقة تكامل لا تصادم، وأن كثيرًا من المواثيق الأممية تحمل أمورًا ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب لو طُبقت علينا بحذافيرها سوف نتصادم مع الشريعة، ومع حفظ الأسرة المسلمة، والقيم الأصيلة.



وثيقة العنف ضد المرأة.. الشريعة لم تصل بعد!

حسام عبد العزيز

"المسلمون ينضمون لتعهد بشأن حقوق المرأة".

عنوان موجع اختارته صحيفة (ذي إندبندنت) البريطانية؛ لتعلن أن الدول المسلمة وقعت على وثيقة تخالف الشريعة الإسلامية رغم أنف علمائها، وأن دول الربيع العربي التي يُؤمل من حكامها تطبيق الشريعة لم تسلم من الإذعان للأمم المتحدة.

مصر وليبيا وتونس يوافقون على وثيقة أممية بعنوان:"إلغاء ومنع كافة أشكال العنف ضد النساء والفتيات"، على الرغم من فتاوي الأزهر ودار الإفتاء الليبية ورابطة علماء المسلمين والاتحاد العالمي لعلماء المسلمين التي أكدت أن الوثيقة تخالف الشريعة الإسلامية.

الوثيقة أصدرتها "لجنة وضع المرأة" التابعة للأمم المتحدة والمسؤولة عن اتفاقية (سيداو) التي تقف وراء كافة أشكال الانحلال التي وصلت إليه المرأة في المجتمعات الإسلامية وغيرها؛ بل إن الوثيقة الأخيرة في الواقع ليست سوى متابعة لتوصيات اتفاقيتي (سيداو)و(بكين) سيئتي السمعة.

وقد اعتادت المنظمات الغربية والدول التي تقف خلفها على حشو الوثائق الحقوقية بكلمات موهمة لا تلفظها المجتمعات المتدينة؛ فالوثيقة الأخيرة هي وثيقة تناهض العنف ضد المرأة، ومن منا لا يرفض العنف ضد الرجال فضلًا عن النساء؟

بيد أن "العنف ضد النساء" كما تعرِّفهاالجمعية العامة للأمم المتحدة وتعرِّفه الوثيقة ليس هو العنف المعروف بالمعنى اللغوي؛ فالتعريف الأممي جاء كالتالي: "أي اعتداء ضد المرأة مبني على أساس الجنس، والذي يتسبب بإحداث إيذاء أو ألم جسدي أو جنسي أو نفسي للمرأة، ويشمل أيضًا التهديد بهذا الاعتداء أو الضغط أو الحرمان التعسفي للحريات، سواء حدث في إطار الحياة العامة أو الخاصة".

وبهذا المفهوم، فإن معاقبة الزوجة بالضرب غير المبرح -بعد الوعظ والهجر- يمسي نوعًا من العنف المنزلي أو "**domestic violence**" والذي أدانته الوثيقة، التي تدين كذلك منع المرأة من السفر أو العمل أو الخروج دون إذن زوجها سواء كان المانع الدولة أو الزوج نفسه باعتبار ذلك عنفًا على أساس الجنس وتقييدًا للحرية الشخصية،أما ولاية الأب على ابنته فتتوقف عند حرية ابنته في التنقل وممارسة الجنس،بالمناسبة، ظلت الولايات المتحدة وبريطانيا حتى نهايات القرن قبل الماضي تجيزان للزوج معاقبة زوجته المخطئة.



نبذ التمييز ضد المرأة (**discrimination against women and girls**) ومساواة النوع (**gender equality**) مصطلحان آخران نصت عليهما الوثيقة، وهو ما يعني إدانة كل فعلٍ يميز الرجل عن المرأة على أساس الجنس؛ حتى لو كان الفعل صادرًا ممن له سلطة عليها في مجتمعها؛ كالأبوين أو الزوج أو المعلم أو القادة الدينيين، حسبما ذكرت الوثيقة.

إذن فإيجاب الحجاب على المرأة من قِبَل أبويها أو زوجها عمل شائن بحكم الوثيقة، وكذا فتاوى العلماء -المستمدة من الكتاب والسنة- بأن المحجبة عاصية لربها لكون تلك الفتاوي داخلة في إطار الممارسات الرامية لعزل المرأة اجتماعيًّا لإجبارها على فعلٍ ما(الحجاب) بسبب جنسها ومن ثم فهي تمييز ضد المرأة. ويلحق بذلك حق الرجل في التعدد بخلاف المرأة، وإلزام المرأة المتوفى عنها زوجها بالاعتداد في بيتها، وتوريث البنت من أبيها على النصف من شقيقها، أما الطامة الكبرى فهي نسف القوامة؛ فالوثيقة باختصار تتحدث عن مساواة كاملة ليس فيها للرجال على النساء درجة.

إيجاب الحجاب على المرأة من قِبَل أبويها أو زوجها عمل شائن بحكم الوثيقة!

وتطالب الوثيقة الحكومات بتأسيس وتفعيل سياسات لتقسيم كافة الأعمال داخل البيت من خدمة ومسؤولية رعاية الأبناء بين الرجل والمرأة لتخفيف العبء عليها وإعطاء الزوجة الحق في الحماية ضد زوجها إذا جامعها أو باشرها بغير رضاها بوصف ذلك اغتصابًا أو تحرشًا منزليًا **Domestic rape or harassment**.

تشجع الوثيقة كذلك على منح الأبناء حق اختيار السلوك الجنسي،ومن ثم تحض ضمنيًّا على إباحة اللواط والسحاق، وإعطاء المرأة الحق في تغيير جنسها، والسماح لها بالعلاقات الجنسية خارج الزواج؛ فتصبح الزانية أمام المجتمع والدولة كالزوجة، والأبناء الشرعيون كأبناء الزنا، كما تحث الوثيقة الحكومات على توفير وسائل منع الحمل الطارئة التي تُعطى بعد ممارسة الجنس، وعلى منح النساء الحق في التخلص من الحمل غير المرغوب (الإجهاض الآمن) تحت مسمى الصحة الإنجابية.



تؤكد الموافقة على الوثيقة الأممية على أن دول الربيع العربي (مصر وليبيا وتونس) لم تصلها رياح الشريعة بعد، فقد ضربت رئيسة الوفد المصري ميرفت التلاوي عرض الحائط بفتاوي الأزهر ورابطة علماء المسلمين والاتحاد العالمي لعلماء المسلمين واعتراضات السلفيين، وأصرت على الموافقة على الوثيقة في تصرف أسعد الحضور -حسب وصف وكالة (أسوشيتد برس)- بل وبلغت الجرأة أن وسائل الإعلام المصرية تسابقت في استضافة التلاوي للحديث عن موافقة الوثيقة للشريعة، بدلًا من أن تراجع هذه الوسائل الإعلامية المؤسسات الشرعية السابق ذكرها.

وكالعادة، خرجت التبريرات المعتادة لحفظ ماء الوجه؛ فقيل إن الوثيقة غير إلزامية،وهذا صحيح، فما الذي منع مصر من رفض الوثيقة؟ وما الضغوط التي مورست على مصر للموافقة على وثيقة غير إلزامية؟ وهل لذلك علاقة بالبيان الذي أصدره البرلمان الأوروبي قبل أيام من إقرار الوثيقة؟ والذي جاء فيه أن مصر لن تحصل على مساعدات قبل القيام بعدة إصلاحات، منها حماية المرأة من العنف؟ وهل يجيز الشرع الإقرار بالكفر أو المنكر ما دام المقر لن يقترفه؟!

لقد وافقت مصر -والفضل لميرفت التلاوي-على بندٍ يؤكد أن العنف ضد النساء والبنات لا يمكن تبريره بأي "عادات أو تقاليد أو اعتبارات دينية"، وهو البند الذي تلقفه الدكتور البرادعي بوصفه انتصارًا للعلمانية.

اختلف الإسلاميون كثيرًا حول التدرج في تطبيق الشريعة؛ لكن الخلاف القادم على ما يبدو لن يكون موضوعه التدرج أو وتيرة السير نحو التطبيق الكامل للشريعة؛ بل سيكون حول توقيت البدء في تطبيق الشريعة!

تحفظات غير إسلامية على اتفاقية "السيداو"

CEDAW
Convention on the Elimination of all Forms of Discrimination against Women

كريم الشاهد

لقد وقّعت الولايات المتحدة على اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة "السيداو" عام 1979 م في عهد الرئيس جيمي كارتر، ولكنها وَقَّعَت على الاتفاقية ولم تُصَدِّق عليها، وطالما لم تصدِّق الدولة على الاتفاقية؛ فهي غير ملتزمة بأي بند من بنودها.

وقد حاولت إدارة الرئيس كلينتون أن تدفع بالتصديق على الاتفاقية عام 1994م، وقامت لجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس بالتوصية بتصديق الولايات المتحدة؛ لكن اليمين آنذاك استطاع أن يوقَف عملية التصويت.

ثم بدا للرئيس بوش الابن التصديق على السيداو؛ لكنه ما لبث أن رجع عن موقفه ولم يُقِرها عام 2002م، ثم صوتت لجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس بالموافقة على التصديق بنسبة 12 إلى 7، ولكن الكونجرس لم يقرر التصديق أيضًا.

ووَضَّحت "كافيتان رامداس" الخبيرة بحقوق الإنسان والمدافعة عن اتفاقية السيداو أمام الإدارة الأمريكية أن وزيرة الخارجية السابقة هيلاري كلينتون قالت بأن إدارة أوباما تؤمن بمساواة المرأة، وأنها لابد وأن تصدِّق على الاتفاقية، لكن يبدو أن الإدارة خائفة من رد فعل الجمهوريين.

وتنادي أكثر من مائة مؤسسة حقوقية أمريكية بالتصديق على السيداو، ومن ضمنها "منظمة العفو الدولية" أو **Amnesty International** ؛ ولكن اليمين السياسي الديني الأمريكي يقف مانعًا ذلك في وجه الجميع، والذي يرى أن الاتفاقية ستغير ثقافة وقوانين الولايات المتحدة.

ويرفض اليمين الأمريكي اتفاقية السيداو للأسباب الآتية:

1. ستؤدي إلى تعديل أو إلغاء قانون الأسرة، ومحو القيم العائلية.
2. ضمان السماح للنساء بعمليات الإجهاض ومنع الحمل.
3. السماح بوجود ذريعة للتوجه النسوي بالتدخل في الشأن الأمريكي.
4. مساواة الرجل بالمرأة في أجور العمل، وهو ما ينافي مبدأ الاقتصاد الحر الأمريكي.
5. السماح بزواج المثليين.
6. تقنين الدعارة.
7. تقليص حقوق الآباء.
8. عدم تحقيق سيادة الدولة الأمريكية على أرضها.



"أما دولة الفاتيكان فهي لم توقع بالأساس على اتفاقية السيداو"

أما دولة الفاتيكان فهي لم توقع بالأساس على الاتفاقية، وللأمر عندهم تعلق بسيادة دولتهم ومعارضة بعض بنود الاتفاقية لديانتهم، وقد بحثت كثيرًا حتى أجد موقفًا نقديًّا واحدًا لهم من دولة غربية فلم أجد، حتى نقد نشطاء حقوق المرأة الغربيين لم أعثر عليه أيضًا.

بينما تجد النشطاء الحقوقيين عندنا يهاجمون الدول العربية والإسلامية بضراوة بالغة، مع أن "كل" تلك الدول وقعت على الاتفاقية، والذين رفضوا التصديق هم الصومال والسودان وإيران، وباقي الدول العربية والإسلامية لها تحفظات على بعض البنود، ومنها بنود تتعلق بسيادة الدولة والتدخل في تشريعاتها الداخلية، وكثير من دول العالم سواء في آسيا أو أوروبا قد تحفظوا على تلك البنود أيضًا لنفس الأسباب، وهي -حتى- غير متعلقة بالدين.

أما البنود التي ترى الدولة أنها تعارض دينها، فلا أدري لم الإنكار عليها؟! أم قد جاء الوقت الذي سنتخذ فيه الأمم المتحدة إلهًا ومشرعًا من دون الله؟!

المسلمون في الغرب والقِصتان

عصام المغربي

عن المسلمين في الغرب أحدثك أيها القارئ النبيل. وككل شيء في هذه الدنيا، فقصة هؤلاء ليست واحدة متجانسة، بل هما قصتان مختلفتان كل الاختلاف، بل هما متناقضتان! ولا تعجبْ، فإن الناس في الجملة تصنع في أخيلتها فهومًا تعدها من الحقائق والمسلمات، وليست هي كذلك وإنما هي "حقائق متخيلة" و قناعات لا برهان عليها سوى الهوى.

القصة الأولى: هي حكايات عن إسلام ينتشر في الغرب بسرعة تخيف الحكومات هناك وتهدد وجود الديانات الأخرى، عن المسجد الجامع الذي تبرع ببنائه الملك زيد أو الأمير عمرو، عن الشيخ العلامة الذي زار مسجداً في هامبورج فأسلم على يديه مائتا شخص (لا تسل كيف وقد بقي العلامة هناك يومًا وليلة)، عن الطبيب المسلم الذي يسلم على يديه باستمرار مرضى وممرضون وأطباء لا لشيء سوى حسن خلقه. لن أطيل عليك فأنت تعرف البقية على كل حال: تفاصيل وردية لجاليات مسلمة متحضرة تنشر الإسلام ولا تعاني إلا من اليمين المتطرف الشرير.

أما القصة الثانية غير المحبوبة فدعني أضعها في محاور مختصرة:

الهوية الإسلامية:

من قرأ "**رسالة في الطريق إلى ثقافتنا**" لشيخ العربية محمود شاكر قد يفزعه حجم الدمار الثقافي الذي خلفه الفرنسيون ثم الإنجليز في مصر و هتكهم العلائق بين الأجيال المعاصرة والأجيال السابقة، تصور حجم الدمار الذي يصنع الغرب في هويات مسلمين وعرب يعيشون بينهم ويدرسون في مدارسهم وينظرون في إعلامهم كل يوم!

يقول ابن تيمية: "اللسان العربي شعار الإسلام وأهلِه، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون". كيف لو رأى الإمام خمسة ملايين مسلم في فرنسا وحدها لا يقدر الواحد منهم أن يكتب أو يقرأ العربية؟! كيف لو رأى شابًا "**عربيًا**" في يوم الجمعة يقرأ في "**ترجمة لمعاني القرآن**" صنعها مستشرق ما! العرب الذين أنتجهم الغرب عربٌ بالانتماء العرقي فقط، أما اللسان فإن مبلغ جهد واحدهم أن يتكلم بعامية قريبة من عامية "**الخواجة استافروس**" في الخيال الشعبي المصري.

الانهيار الأخلاقي:

شهد عام ٢٠١١ حدثًا غريبًا لكنه يدل بقوة على التيه الخلقي عند مسلمي الغرب؛ فلقد أسس مجموعة من الشباب من أصول عربية "مسجدًا للشواذ"! لاحظ أن المسجد ليس "عربيًا" بل "مسلمًا".

ولن أفصل في انتشار العلاقات قبل الزواج والتي يساهم فيها بعض السفهاء من أئمة المساجد بعقدهم ما يسمى "زواج المسجد"، وهو أن يحضر الرجل والمرأة فيقرأ هذا الرجل عليهما شيئًا من القرآن، ويحضر هذا "شاهدان" ويأخذ خمسين يورو وينصرف الجمع بزانيين وشاهدي زور وإمام ينشر الفاحشة بمال قليل!

وأما المخدرات والكحول فيكفيك من خبرهما أن العرب لا يفشو فيهم الاستهلاك وحسب، بل الترويج والتجارة، والسجون مليئة للأسف ببني جلدتنا لهذا السبب، وإن الواحد منهم في المطعم يتأكد من أن اللحم حلال ثم يطلب معه قنينة خمرا! وغير هذا كثير مما يبعث التقزز في النفوس السوية.



مصيبة المساجد:

المساجد في الغرب تشكو فقرًا حقيقيًا في الوعظ السليم؛ فهي بين وعاظ السلطان (نعم هناك وعاظ سلطان في الغرب لا تعجب، والسلطان هناك هو الجمهورية العلمانية وثوابتها)، وبين وعاظ فقراء إلى العلم، أو فقراء إلى سبيل لتبليغ ما معهم من العلم، ويكفيك أن تحضر خطبة جمعة في الغرب لتقف على ما أقول! فهذه بدل أن تكون ذلك الهواء النقي الذي يتنفسه المسلم بعد أسبوع من تنفس هواء الفجور تُعمِّق ضياعه الفكري وذوبان هويته!



الحل:

لعلك ضقت بما سبق من الطوام فقلتَ أليس لصاحبنا هذا نظارة ينظر بها فيرى الجميل من الأشياء وينزع قليلًا إلى التفاؤل؟ بلى؛ والحلول كثيرة لاستعادة الشباب المسلم وبناء ما تهدَّم من شخصيته الإسلامية.

١/ فمن ذلك مثلًا أن لا يكتفي العلماء والدعاة بالمرور على الغرب ملتفين بالإعلام ومحاكين رؤساء الدول في "زياراتهم المفاجئة المعدة سلفًا"! بل أن يحتسبوا ويرابطوا في الغرب بين المسلمين الشهر والسنة ويعملوا على الأرض.

٢/ فتح قنوات فضائية باللغات الفرنسية والإنجليزية وغيرهما من اللغات حسب الضرورة لتعليم أساسيات الدين لمسلمي الغرب، ولعلها تصيب غيرهم من الناطقين بتلك الألسن فيدخلوا في دين اللّه، وهذه القنوات ضرورية لكسر احتكار الإعلام الغربي لصياغة عقلية الشاب العربي وصنع مسلَّمات في ذهنه.

٣/ حركة ترجمة واسعة وهادفة للتراث الإسلامي إلى اللغات الأجنبية ونشره بين المسلمين أولًا، ثم الغربيين ثانيًا.

٤/ إنشاء مؤسسات لتعليم العربية مجانًا يكون توقيتها مناسبًا؛ فتكون دروسها مسائية مثلًا.

٥/ إنشاء جمعيات في ضواحي المدن الكبيرة تعمل في المجال الاجتماعي لمساعدة المسلمين
(نسيتُ أن أخبرك أن الفشل الدراسي وصعوبة الولوج إلى العمل منتشرتان بقوة بين العرب المسلمين في الغرب).

ختاماً

فلقد كان بعض فقهاء المسلمين يلزم السلطان بمنع المسلمين من المجاوزة إلى بلاد الكفر، أما وقد جاوزوا إلى هناك وبالملايين فالواجب علينا العمل على أن يبقوا مسلمين!

هولندا والإسلام العلاقة القديمة

طارق منينة

ككل الدول الأوروبية، الرأسمالية، خرجت هولندا الحديثة من رحم العصور الوسطى المسيحية، التي أدمتها حروب دموية، مسيحية،داخلية،وخارجية؛ لكنها على الرغم من ذلك دخلت عصر النهضة بتجاراتها وترجماتها لعلوم المسلمين، وقد كانت هولندا المعبر الأصلي-بالترجمة- في نشر العلم الإسلامي، من الفلك إلى الطب، والرياضيات إلى إنشاء الحدائق والمدن.

وكما هو معلوم، فقد كانت أوروبا الوسيطة تعيش حالة من الجهل والفقر والمرض، وقذارة الطرق وظلامها، لم يختلف أحد من المؤرخين أو الفلاسفة الغربيين في الإقرار بذلك، ولم تستنِر القارة العجوز إلا بوصول الإسلام لأعرق معاقلها وأفضل أراضيها،عن طريق الفتوحات أولًا، فتح إسبانيا، ثم عن طريق الترجمات للإنتاج العلمي الإسلامي، وغزارة التأثيرات العميقة، طويلة الأمد، في البنية النفسية والعقلية الغربية.

فعند وصول الإسلام إلى إسبانيا عام 93 هجرية، 711 ميلادية، بدأت النفوس الأوروبية تشرئب للتعرف على هذا "العدو" الذي مكث في الغرب نفسه، يبني ويدفع برسائله العلمية وإنتاجه الغزير، لمدنها القذرة، والمظلمة، الذي أقام حضارة زاهية في بعض حواضرها ومدنها الفخمة ولأكثر من 800 سنة، مؤسسًا في أوروبا نفسها أعظم حضارة علمية وتكنولوجية، عقلية ودينية ظهرت في التاريخ البشري كله.

لقد أسست حضارتنا حالة اجتماعية وثقافية، عقلية وعلمية، مختلفة في مقوماتها ومسلماتها عن المسيحية الغربية التي سجنت المجتمعات وحجبت العلوم والدراسات، حتى كان الفقر والجوع والجهل والمرض في هولندا وغيرها.

عنوان داخل كتاب (شمس العرب) لزيغريد هونكه فيه أوروبا الجائعة...، ولم تستحي زيغريد من نحت الوصف التالي (بلاد الغرب الجائعة، ص30)، حتى حضر "العدو"، أو بالأحرى"الصديق" أو إن شئت أن تسميه"المنقذ" أو "المخلّص" منطلقًا من بلاد العرب، ومن مكة تحديدًا، بعد أن نزل الوحي القرآني على النبي محمد، الذي بدأ الوحي يدعوه أول مايدعوه للقراءة"إقرأ" ويعلن أنه أرسل رحمة للعالمين.

هولندا ناقلة علوم المسلمين تتطور:

لاشك أن هولندا استفادت من منجزات هذا الوحي العلمية والعملية، المالية والتجارية، فكانت أنوار حواضر الإسلام في الأندلس وقرطبة وغرناطة وصقيلة وغيرها من المدائن والبلاد التي استنارت بأنوار الإسلام مركزًا لإنتاج كل صنوف العلم،التي دُفعت لاحقًا إلى دور النشر الهولندية القليلة جدًّا، لكنها النشطة جدًّا،ولاشك أنه قد سبق ذلك افتتان الشباب الأوروبي بالعلم الإسلامي؛ فعن قرطبة تقول لنا زيغريد هونكه-وهي باحثة ألمانية مشهورة:-: "وفي الأندلس تجتذب قرطبة طلاب العلم من كل أنحاء الشرق بل الغرب أيضًا، تجتذبهم بمدارسها العليا ومكتبتها العظيمة ... نصف مليون من الكتب القيمة". [شمس العرب تسطع على الغرب ص 353]

وعن طريق التجارة مع المسلمين في الشرق والغرب تطورت أوروبا وهولندا في البداية، ما ساعدها على جلب العلوم والقيام بعمليات ترجمة واسعة ونشطة؛ تذكر هونكه أنه لولا تجارة العرب مع البندقية الإيطالية وصهر القارات بعضها ببعض لبقي الفقر في أوروبا:"فإنها مكنت-كذلك التجارة الإيطالية والألمانية والفرنسية والهولندية- من أن تعيش في ازدهار مستمر لم تكن لتعرفه لولاها،ومن أن تتغلغل في تيار جارف كاسح في شبكة من المدن والطرقات دائمة النمو حتى وصلت إلى إنجلترا (أو الجزر البريطانية) وإلى الشمال الإكسكندنافي؛ فيا للتحول، ويا للازدهار اللذين عرفتهما تلك المدن حينذاك". [شمس العرب، لهونكه، ص40]

فعُبّدت الطرق، وانتشرت المدن، ووضعت النظافة وانتشرت الحمامات، والحدائق والأنوار، والدواء والطب، والصيدليات والمكتبات، والجامعات والمختبرات، حتى قال أغريبافون نتيسيهايم في نص زينت به هونكه فصلًا من كتابها بعنوان (الأيدي الشافية) أن أوروبا استقبلت كتب الطب الإسلامية: "ونالت حظوة قصوى عند الناس إلى درجة أنه إذا ماحاول امرؤ ما ممارسة الطب دون الاستناد إليها اتُهم، على أهون سبيل بالعمل على الإضرار بالمصلحة العامة". [ص 213] ماجعلها تقول أيضًا: "وإننا لندين-والتاريخ شاهد على ذلك- في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب". [ص20].



العربية تفتح باب العلوم:

(البابا يحسب بالعربية!)، عنوان كتبته زيغريد هونكه، وأضافت أن رجلًا مثل "جريرت" المتعطش للعلم يبحث عن ضالته خارج تلك الأديرة ويأخذ من العرب ويستفيد ويزيد من معارفه واطلاعه...لقد بدأ ربيع جديد مفعم بالحياة بعد شتاء طويل قاس". [شمس العرب، ص79]

تأثرت إيطاليا أولًا بعد مدن إسبانيا، ثم كما تقول زيغريد هونكه:"ومن البيوت التجارية الإيطالية حمل الألمان والفرنسيون والإنكليز والهولنديون معهم إلى بلادهم أخبار تلك العلوم، وماكان بالأمس وقفًا على المدارس والجامعات أصبح بعد اختراع الطباعة ملكًا للشعب كله، واعتنى معلمو الرياضيات بنشر الأرقام وطرق الحساب العربية في دروسهم...وقامت بدورها في العلوم والرياضة والاقتصاد على مر الأيام خير قيام". [شمس العرب، ص101،100]

وضعت أوروبا يدها على مكتبات الحواضر الإسلامية، بعد طرد المسلمين، فتمت ترجمتها ونتج عن ذلك عصر النهضة الأوروبي، وكانت هولندا من أولى الدول التي آوت المترجمين فتنورت أوروبا كلها، ونسجت على منوال حواضر الإسلام؛ في العلم والنظافة، والعقل والمجال التقني التكنولوجي.

كان العلم الإسلامي يخترق كل العالم الغربي، ويصنع التغيير فيه، يعترف المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون فيعرض الحالة:"تُطبع أعمال ابن سينا الطبية والفلسفية، وكتب قواعد وجغرافية ورياضيات،الجهد سيستأنف في باريس وهولندا وألمانيا في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر، لاسيما معرفة أفضل للطب السينوي".
[جاذبية الإسلام لمكسيم رودنسون، ص41]

إلا أن آثار المعارك مع المسلمين وما رسخ في الذهن الأوروبي من دعاوى الكنيسة وأساطيرها عن الإسلام والرسول محمد ﷺ صنع عائقًا كبيرًا أمام التعرف على الإسلام نفسه، ومدى صلته بالإنتاج الذي استفادت منه أوروبا أيما إفادة.

الدنيوية والمجتمع الهولندي الحديث:

تمثل هولندا النموذج العلماني الأوروبي الأكثر تطبيقًا للعلمانية وخضوعًا لما أُطلِق عليه "العقل المستقل"، فما يوحي به هذا العقل من مسلمات فلسفية قُررت مسبقًايصبح مع الوقت قانونًا، ويستمد الشرعية من نتائج استفتاء الجماهير على الأحزاب، داخل الإطار التشريعي والقيمي الذي وضعته العلمانية منذ قرون، والذي يتم تعديله بشكل دائم.



ومعلوم أن الدين لم يعد له أي دور تشريعي في مركز "السيادة العليا"؛ فقد تراجع نفوذه إلى أضيق حال ممكن في حياة الناس وسلطة الدولة والمجتمع، فلادخل للدين في السيادة العليا للدولة بعد أن تم القطيعة معه، لامكان له يُذكر في سيادة المؤسسات، وسلطة التشريعات، والتحكم في القيم والقرارات، وقد يستأنسون به -كما يزعمون- باعتباره سندًا أخلاقيًّا موروثا؛ مع أن الذي يحكم حركة الحياة في هذا العالم المادي إنما هو الروح النفعية، والروح الإنسانوية العلمانية، التي تستند إلى المقومات التي ورثتها من العصور النهضوية القديمة والقيم العقلية، التي تمخض عنها عصر التنوير وما تم تعديله منها في عصر الحداثة الأخير، مثل إتاحة الفرصة للأديان والجماعات الدينية المختلفة لمزاولة نشاطاتها العبادية، وافتتاح مدارس تحت إشراف الدولة يتم فيها تدريس بعض مواد دينية خاصة، مع المادة العلمية والعلمانية التي تدرس في كافة المدارس الأخرى؛ فالسيادة العليا في القانون والدولة إنما هي لهذه العلمانية.

إن تأثير المنظومة الكبرى صاحبة السيادة عليهافي هولندا كمثال وصلت مؤثراته العميقة حتى داخل الكنيسة؛ مثل الموقف من المثليين والحداثة؛ ففضلًا عن قبول الأحزاب المسيحية للشواذ كأعضاء، تعج كثير من الكنائس البروتستانتية بأصحاب هذه الميول الشاذة، ولأضرب مثلًا على ماأقول أذكر أني كنت قد حادثت قديمًا امرأة هولندية شابة عن الحكم على المثليين في كنيستها البروتستانتية، فقالت إن كنيستها تترك الدينونة لله، وذكرت لي نص المسيح لامرأة زانية: "اذهبي ولاتعودي"؛ فقالت كأنه يقول لها لامجال لنا في الحكم عليك بشيء، وأنت حرة في فعل أي عمل، والإيمان بي فاديًا مُخلّصًا يغفر لك أي عمل تقومين به! هكذا تم التأثير على الكنائس وابتداع مفاهيم جديدة للنصوص الدينية، حتى إنه توجد كنائس للشواذ رؤوسها منهم!

أما المجال الإجتماعي العام فنذكر أنه في مجال الأسرة قد أبيح بالقانون الزواج المثلي وتعدد الأسر؛ فلم تعد"الأسرة" هي"الأسرة"بالألف واللام في الحالة الغربية، أي إنه يمكن اتخاذ أسرة على أي صورة يمكن أن تنبثق داخل هذه"الحالة العلمانية" المتصاعدة، وقد صارت "مُسلَّمة قانونية" بعد أن انتشرت فصارت" ممارسة اجتماعية" أولًا؛ فزواج الإناث بعضهن من بعض لم يفرض نفسه في الدولة إلا بعد أن صار "حالة هولندية" غربية موجودة في كل بيت وكل مكان للعمل أو مؤسسة؛ فتجد الرجل له صديق شاذ، وأخته لها صديقة مثلية، أو تجد الأب -وهذا هو العجيب ويقع كثيرًا- يترك زوجته وله أولاد منها لأنه اكتشف في نفسه- كما يقول ويقال-أن أنثى تعيش داخله! أما في أماكن العمل فتجد المدير أو زميل العمل أو المديرة وزميلة العمل تعيش حالة مثلية اجتماعية لااعتراض عليها في المجتمع بصورة عامة، ولاتخلو مؤسسة من وجود مثليين، وبصورة شائعة ومتعددة ومتنوعة.

فالحالة المثلية صارت حالة اجتماعية في هولندا، وصارت تجد لها دعمها مؤسساتيًّا وإعلاميًّا ومدرسيًّا، وهو أمر ينفق عليه الملايين؛ ذلك أنه بين الحين والآخر تظهر صور الرفض لهذه المثلية من بعض الطلبة خصوصًا العرب، المغاربة على سبيل المثال، أو في العمل؛ فيتم تشديد العقوبة لمن يقوم بإثارة "العنصرية" ضد هذا "الآخر"!

ويتم الدعم كما أشرت من قبل، من قبل الأحزاب، والمؤسسات، والبحوث الأكاديمية، الفلسفية والعلمية.

غرائب فوق غرائب في هولندا

وقد ظهر منذ سنوات حزب وليد، وضع من بنوده السعي في إتاحة الجنس مع الأطفال وبالتالي صناعة أفلام الجنس من هذا النوع! بيد أن المحكمة رفضت شرعية الحزب لعدم ملائمته للأوضاع ولمخالفته للقانون السائد!

ويشتهر أن البعض من الهولنديين وغيرهم من الأوروبيين يقومون بالذهاب إلى الدول الآسيوية لممارسة هذا الجنس الرخيص، أما في هولندا نفسها فإن الخبر ليصلك في كل عام مرة أو مرتين عن اقتحام الشرطة لمحلات الجنس(حتى الشذوذ) المنتشرة (قانونيًّا)في ربوع البلاد، والأحياء المختلفة، لمصادرة الشرائط الجنسية الخاصة بالجنس مع الأطفال، وهي منتشرة في تلك المحلات، وهي غالبًا ما تكون قد أنتجت في البلاد الفقيرة، خصوصًا دول آسيا؛ مثل دولة "تايلاند" ذلك المنتجع السياحي للباحثين عن أغراضهم العلمانية المستقلة فيه!

ولتكملة "المشهد الاجتماعي العلماني" نذكر أن محلات بيع الأدوات الجنسية والمواد المرئية منتشرة في كافة أنحاء الدولة الهولندية العلمانية؛ فالعقل الفلسفي العلماني والقانون الخاضع لسيادته أباح هذه الشؤون الجنسية الاجتماعية الغربية، وتنتشر الشوارع الجنسية المفتوحة في كل مدينة، كما تنتشر البيوت الخاصة والمنتجعات والبارات، ويحميها جميعها القانون العلماني.

كما تنتشر الإعلانات الجنسية للأفراد-الطالب والمطلوب- في الصحف الكبيرة وغيرها ، تنشيطًا للتجارة الجنسية المنتشرة في كل مكان.

تنتشر في هولندا -أيضًا-البارات التي تأوي إليها مختلف شرائح المجتمع، خصوصًا في الإجازة الأسبوعية، ويباع في كثير منها أنواع من المخدرات القانونية! مثل الحشيش والمارجوانا، كما تنتشر بارات تأوي إليها فئات المجتمع المختلفة؛ فمقهى للشواذ من الرجال، وأُخرى للنساء، وتختلف المقاهي باختلاف أنواع الناس، وهناك مقاهي عامة وبارت مفتوحة للجميع.

ويمكن القول اختصارًا إن الغرب ككل وخصوصًا هولندا يجتمع فيه نتائج الحضارة الإسلامية العلمية، مع الإرث الإغريقي اليوناني، والانفتاح الروماني على الشهوات.



بسم الله الرحمن الرحيم

المناظرات في السلوك الإنساني ظاهرة مرتبطة بحاجة الإنسان إلى اكتساب المعارف، ورغبته في الدعوة إلى قناعاته والدفاع عنها؛ فهي مرتبطة بالإنسان من حيث هو كائنٌ مُفكِّر.

واليوم تمتلئ ساحاتنا الثقافية بألوان من المناظرات -وقد نسميها الحوارات أو النقاشات أو المجادلات-، وهي ظاهرة تدل على الانفتاح، المضادِّ للعُزلَة والانغلاق، وهذا (**الانفتاح**) إنما يكون ظاهرة إيجابية بشروط؛ إذ قد تكلم العلماء في الموازنة بين (**العزلة**) و(**الخُلْطة**) وقالوا: إن (**الخُلْطة**) -أو (**الانفتاح**)- ليست أمرًا محمودًا مطلقًا؛ وإنما يختلف ذلك باختلاف العوارض والأحوال.

إلا أنه مما ينبغي أن يقال: إن الانفتاح صار في وقتنا هذا -بعد تصاعد تأثير قنوات التواصل الاجتماعي- صار أمرًا مفروضًا أو أشبه بالمفروض؛ بحيث إن سدَّه مطلقًا -لو فُرض أن السَّدَاد في سدِّه مطلقًا- أمرٌ عسيرٌ أو محالٌ على أصحاب القوة والولايات؛ فكيف بمن لا يملك إلا قلمه ولسانه؟ فصارت الحاجة ماسَّةً إلى ترشيد هذا الانفتاح. ومن جوانب هذا الترشيد "**ترشيد المناظرات**" التي تشغل حيزًا كبيرًا من هذا الفضاء.

والرؤية التي سأطرحها في هذه المقالة تنطلق من جانبين:

الجانب الأول: يتعلق بترشيد المواقف من الآخرين. **والجانب الثاني**: ترشيد النفس وإصلاحها.

الجانب الأول: ترشيد المواقف من الآخرين:

وأعني هنا بالآخرين: جميع الناس الذين تجدهم في تلك الساحات التي هي محل اهتمامك؛ فإن كنت شرعيًا فالآخرون هم الشرعيون من العلماء وطلبة العلم الذين يشغلون تلك الساحة، وإن كنت مفكرًا أو مهتمًا بالفلسفة أو الآداب أو العلوم الإنسانية؛ فالآخرون هم أولئك الذين يشغلون هذه الساحات.

الرؤية الرشيدة للآخرين، هي الباب الوحيد الذي من خلاله يمكنك أن تشقَّ طريقك بينهم، سواء أردت تحصيل علم أو إبطال باطل أو إرشاد جاهل أو قمع مبتدع صائل، وإلا لم تفلح في تحصيل بُغيتك، أو خرجت عن مهيع الحق والعدل، أو أصابك كلا الأمرين.

والتصنيف الرشيد هو نقطة الانطلاق الأولى في رؤيتك الرشيدة للآخرين، ولا تنفرنَّ من لفظ "التصنيف" لسوء استعمال له، فببضع أسئلة تسأل بها نفسك يمكنك أن تعرف أنك أنت أيضًا تمتلك تصنيفًا لأولئك الناشطين في الساحات التي هي موضع اهتمامك، فلو سألت نفسك: **من هو أعلم الناس في الباب الفلاني؟ من هو قدوتك في الفن الفلاني؟ من هو أشد الناس ضررًا في نظرك في الطائفة الفلانية؟** لوجدت أنك تمتلك أجوبة لهذه الأسئلة. **إذًا؛** فالتصنيف أمرٌ واقعٌ ولا يُتفلَّتُ منه بالهروب من اللفظ، والذي ننشده هو ترشيد التصنيف لا إلغاؤه، إذ إلغاؤه محال.

وترشيد عملية التصنيف يمكن بيانهُ في جملة واحدة: وهي أن تكون علمية التصنيف مُؤسَّسَةً على معايير علميّة منضبطة، بحيث تصيب فيها الحق والاطِّراد وتبرأ من الباطل والتذبذب.

وسأنقد طريقة واحدة من طرق التصنيف التي أزعم أنها من أكثر الطرق رواجًا، وبها يُمحَقُ الحقُّ والعلمُ والعدل، وهي: أن يكون المعيار الوحيد في تصنيف الآخرين موافقتهم لما أنا عليه؛ فالناس إما مع طائفتي وحزبي وجماعتي، أو ضدي وضد طائفتي وحزبي وجماعتي، نعم، قد تكون هناك تصنيفات أخرى لمن هو خارج طائفتي أو حزبي أو جماعتي لكن المقصود أن بؤرة هذه العملية التصنيفية هي: أنا أو طائفتي أو حزبي أو جماعتي، وجميع المناظرات و(الحروب) التي أخوضها تدور في فلك هذه البؤرة، فالانتصار هو أن أعلي رؤية حزبي أو أقنع مُناظري به، فأنقله من العصبية لحزبه إلى العصبية لحزبي.



إن هذه الطريقة في التصنيف كما هو مُشاهد لا تؤدي إلا لشيء واحد: وهو أن تتحول ساحات العلم والفكر والثقافة إلى تكتلات أشبه بالتكتلات السياسية، وتسييسُ ساحات الفكر والعلم والثقافة والدعوة أمر في غاية الخطورة -وأعني بالتسيس هنا التعامل معها كما يتعامل مع عالم السياسة- إذ السياسة مبناها على تحصيل القوة والقدرة، بمعنى أن كل تكتل سياسي يهدف إلى أن يكون الأقوى والأقدر، وما سواه دونه، أما في ساحات الفكر والعلم والدعوة والثقافة فالباعث على التحرك فيها سواء من الأفراد والجماعات هو المحبة والرغبة بالهدى.

وبعد هذا الإيماض في نقد هذه الطريقة السيئة الرائجة أخلص إلى عرض المعيار الذي أراه أقرب إلى الرشد في النظرة إلى الآخرين:

يُقسَّم الآخرون -بحسب التعريف آنف الذكر للآخرين- وفق هذه الرؤية إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أهل المشورة والإفادة. **القسم الثاني:** المدعوُّون. **القسم الثالث:** الخصوم والمخالفون

وهذا التقسيم مبني على الحاجة والمحبة، فأهل المشورة والإفادة هم الذين تحتاج إلى ما عندهم من علم وفائدة، وإن ناظرتهم ناظرتهم مناظرةَ مُشاورة، والمدعوون هم الذين يحتاجون ما عندك من علم فترشدهم لإزالة ما لديهم من إشكالات، والخصوم والمخالفون هم الذين يصولون بباطلهم فتتعرض لمناظرتهم وفق حاجة المسلمين ومصلحتهم.

فمحبة الاستفادة والعلم، ومحبة إرشاد الناس وهدايتهم، ومحبة قمع المبطلين ودحرهم، كلها من الأمور التي يحبها الله ويرضاها إذا أخلصت فيها النيَّة وقصد وجهه سبحانه.

ثم إنك بحاجة إلى تصنيف تفصيلي للمنتمين لكل طبقة من هذه الطبقات؛ فتحتاج إلى أن تتعرف إلى طبقات أهل المشورة والإفادة، بمعرفة منازلهم وقدراتهم ومواطن التميز لدى كل منهم. ووسائل هذه المعرفة: الإكثارُ من النظر في كتب التراجم وكذلك المنثورات من رسائلَ ومقالاتٍ في تراجم المعاصرين، والنظرُ في النتاج العلمي الذي يشمل الكتب والمؤلفات واللقاءات والندوات والمحاضرات.. إلخ.

وتحتاج أن تعرف طبقات المدعوين ، فتعرف اختلافهم في الاحتياجات والاستعدادت والقدرات ، فتقدِّم لهم الأهم على المهم ، وتجيبهم بالأجوبة الحكيمة الموافقة لقدراتهم . **ومن وسائل هذه المعرفة : مخالطة الناس التي تورث التجربة والحكمة .**

وتحتاج إلى أن تعرف طبقات المخالفين والخصوم ، فتكون على معرفة تفصيلية بمقالاتهم ودرجاتها، ومعرفة تفصيلية بأعيانهم وتفاوتهم في العلم والقدرة، لتعلم من تكون المصلحة في الاشتغال بمناظرته، ومن تكون المصلحة في الإعراض عنه. ومن أفضل ما يفيد في ذلك -في باب الخصومات العقدية مثلاً-: كتب المقالات التي ترسم خرائط لأهل الملل وأرباب المقالات، ثم من احتاج لمناظرة طائفة معينة احتاج إلى معرفة تفصيلية بمقالاتها ونظرياتها ورجالها، وذلك يتحصل من كتبهم.

ثم إنني أنبه بعد هذا إلى أن هذه القسمة الثلاثية ليست قسمة جامدة، فقد تختلف باختلاف الأبواب والمسائل، أي أن الرجل قد يكون في باب أو مسألة من أهل المشورة والإفادة، وهو مخالف في باب آخر أو مسألة أخرى، وقد يكون مشاورًا في باب مدعوًا في باب آخر، وهكذا.

إن هذه القسمة تعينك على معرفة غايتك من المناظرة ومن تناظر وكيف تناظر، وتعينك في أن تعطي كل ذي قدر قدره، وقد قال ميمون بن مهران رحمه الله تعالى: "**لا تمار من هو أعلم منك، فإذا فعلت ذلك خزن عنك علمه ولم يضره ما قلت شيئًا**".



الجانب الثاني : ترشيد النفس وإصلاحها :

أولاً: إصلاح القدرة: والقدرة في باب المناظرات المقصود بها القدرة العلمية، والقدرة العلمية هي قوة في النفس يتمكن المرء بها من النظر في الأدلة، فليست القدرة العلمية بمقدار المعلومات التي يحملها الإنسان، ولا عدد الحقول التي يمكنه أن يتكلم فيها، فهذا لا يفيد في باب المناظرة بذاته.

ولا تكتمل قوة الإنسان العلمية إلا بأن يكون قادرًا على الجواب عن المعارضات على الحجة التي توصل إليها بنظره.

وقد وضع اليونان علم المنطق وآداب المناظرة لإصلاح هذه القوة، ووضع علماء المسلمين علم أصول الفقه لإصلاح هذه القوة بالنسبة للأدلة الشرعية، ومن أفضل ما يعين على تكوين هذه القوَّة وإصلاحها: إدمان النظر في الممارسات الاستدلالية للأئمة الكبار، بحيث يتشبه بهم بقدر الإمكان، فعلى سبيل المثال: إن كنت عقديًّا فأكثر من القراءة لشيخ الإسلام ابن تيمية ومناظراته للمتكلمين والفلاسفة والمتصوفة في كتبه، وإن كنت متفقِّها فأكثر من القراءة للإمام الشافعي في كتاب الأم ومناظراته لمخالفيه من أئمة الفقه، وقد لوحظ بالمشاهدة أن قدرة المرء الاستدلالية تقوى وتضعف بحسب القدرة الاستدلالية لمن يقتدي به.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن من تلقَّى مقالة من المقالات تقليدًا -مهما جلَّ قدرُ المقلَّد، ومهما كانت المسألة جليلة، ومهما كان المرء مقتنعًا لها- فإنه لا تجوز له المناظرة فيها، لأنه في واقع الأمر لا يملك تلك القوة التي وصفناها في ما مضى، وبدون ملكه لها لا يمكنه أن يتحرك في ساحات المناظرة.

ثم إن المرء محتاج لإصلاح قُدراته اللغوية التي يُعبِّر بها عن تلك المعاني التي حصلها بقوته العلمية، حتى يوصل المعاني الجليلة بأبهى صورة، وقد وُضِع علم البلاغة لهذه الغاية، والقراءة في الممارسات البلاغية -التي تحويها كتب الأدب- مما يفيد في اكتساب هذه القوة.

إن عدم امتلاك المرء لمقياس يعرف به قُدراته العلمية يؤدي به إلى تقحُّم المهالك، فكم من حامل حقٍّ ضعيف الحجة خاض مناظِرًا لمبطلٍ قويٍّ فما نصر الحق ولا أهله، بل عاد وقد التبس الحق عليه، ووقعت الشبهات في قلبه، بمنزلة رجل ضعيف البنية والسلاح يعرض نفسه لقتال رجلٍ قويٍّ صلبٍ فعاد مثخنًا بالجراحات إن لم يعد مقتولاً، ورحم الله امرءًا عرف قدر نفسه.

ثانيًا: إصلاح الإرادة: وقد قدمت أن هذه الرؤية تنطلق من كون المحبة هي الباعث على المناظرات، والمحبة لا تكون محمودة إلا إذا كانت موافقة لما يحبه الله تعالى ويرضاه، فيدفع المرء إلى المناظرة محبة تحصيل الهدى، ومحبة هداية الناس، ومحبة قمع أقوال الصادِّين عن الهدى المضلِّين الناس عنه.

وهذه المحبة إذا كانت وفق مقصود الشارع ترتبت أولويات المرء وفق مقصود الشارع ولم يقدم عملاً أهم من المناظرة عليها، ولا قدم مناظرة على مناظرة أهم منها.

وليحذر المرء أشد الحذر أن يكون باعثه على المناظرة حب الرئاسة والعلو، وهو باعث قوي في الإنسان، يحتاج إلى تعاهد ومحاققة مع النفس، والتأمل في أضراره ومفاسده مما يخمده ويضعفه، ولم أجد أحدًا تكلم في أضرار ومفاسد حب الرئاسة مثل الفخر الرازي في (أقسام اللذَّات).

وليكثر المرء من القراءة في كتب آداب الطلب كـ(جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر، والكتب التي تعرض لآدابِ المشاورة كـ(أدب الدنيا والدين) للماوردي، والكتب التي تُعنى بإدارة الاختلاف كـ(شكرًا أيها الأعداء) و(كيف نختلف) لسلمان العودة، فإن ذلك يعين على إصلاح الإرادة وتحقيق المقصود،

وبالله التوفيق.



الخيار الصعب في الثنائية المفتعلة

حسين عبد الرازق

إسلامٌ بتخلفٍ، وإرهاب، واستبداد وقهر...إلخ،
أم ليبرالية بتقدم وتسامح وتداول للسلطة وحرية...إلخ؟

تقديم

الثنائية المفتعلة أحد أهم طرق التمويه والخداع لفرض الرأي على المخالف؛ بأن تحصره بين أمرين ليقبل أحدهما، وكمثال: من يزعمون تعارضَ العقل والوحي، قالوا: عند التعارض إما أن تقدم العقل أو تقدم الوحي.والصواب: عدمُ التسليم لتلك المقدمة وهذه القسمة. في تفصيل طويل.

وفي باب الإيمان باللّه تعالي وما له من الأسماء والمحامد، يفرض المعطلةُ النفاة هذه الثنائية إما أن تنفي الأسماء والمحامد، أو تقعَ في تمثيل اللّه وتشبيهه بخلقه؛ فلو قلت: نثبتُ للّه تعالي ما جاء به الوحي كقوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: 64]، وقوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه: 5]، وقوله تعالي: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: 22] ونحوها = فأنت بذلك تشبّه اللّه بخلقه، فحتى لا تقع في التشبيه والتمثيل يجب أن تنفي دلالات الوحي على هذه الأسماء والمحامد؛ فحصروا القسمة بين التمثيل والتعطيل!

والصواب: عدم الحصر؛ فثَمَّ قسم ثالث وهو إثبات ما أخبر به الوحي من الأسماء والمحامد مع قوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: 11] وقوله تعالي ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: 4] ونحوها.

والأمثلة كثيرة في الثنائية المفتعلة.

وهذا أحدها:فإن المروِّجين للمشروع العلماني الليبرالي في مصرَ وغيرها من بلاد الإسلام-من المفكرين والسياسيين والإعلاميين وغيرهم- يقدمون مشروعهم وطرحَهم بمحاولةٍ دؤوبة لتشويه صورة الإسلام بأحكامه وعلمائه، وبتزييف تاريخه لتطابق صورتُه صورةَ الدين النصراني المحرّف الذي تسلّط على أوروبا في عصور الظلام (القرون الوسطى) -من القرن الرابع حتى القرن الرابع عشر- إلى الثورة الفرنسية آخر القرن الثامن عشر الذي يُعد كأحد أسوأ وأقبح صور التخلف والانحراف الديني والسياسي والاجتماعي والحضاري،

وقد جمع أصول الانحراف:

الديني وأبرزها: الرهبانية، الأسرار المقدسة، المناقضة لأوليات العقل والفطرة، بدعة رجال الدين (السلطة الكهنوتية)، الحق الإلهي للملوك والحكام، إهانة المرأة، خرافات وأساطير وعبادة الصور والتماثيل وصكوك الغفران التي هي أبشع صور السلطة الكهنوتية وأقوى صور استخفاف العقول.

ظلم وطغيان واستبداد سياسي: ومن صوره: محاكم التفتيش (قهر وقتل وسحق كل من اعترض أو خالف).

تخلف حضاري: بمحاربة العلم والعلماء والمخترعين بل كل من أراد إصلاحًا أو تعميرًا، وبتحالف ظالم مصلحي بين من يُسَمَّون برجال الدين مع الملوك والإقطاعيين، وهو ما سمّي بالدولة (الثيوقراطية) أي: الدينية، وكانت تلك الانحرافات السببَ المباشر لظهور المذاهب العلمانية، وفكرة الدولة المدنية، كبديل عن الدولة الدينية.

فإذا نجح المروجون للعلمانية الليبرالية في تصوير الإسلام وحُكمه وعلمائه وتاريخه على ذاك النحو صحَّ قياسُهم وقُبل مشروعهم الذي يطرحون فيه الليبرالية كبديل لحكم الإسلام، فهي محاولة جاهدة لفرض التجربة العلمانية الليبرالية الأوروبية بفرض ظرفها وبيئتها المناسبتَين في العالم الإسلامي، ليصح القياس في سبب الانحطاط وعلاجه. وبما أن أوروبا أيامَ الدولة الدينية كانت في قمة التخلف والظلم والانحطاط، فتحولت بسبب العلمانية إلى قمة التقدم والحرية والرخاء..



فالخيارُ إذًا: إما التمسك بالدين المشوَّه العاجز عن الإصلاح، الداعي للتخلف، الحاثِّ على الرهبانية، سبب الإرهاب، المشرِّع لطغيان الحاكم، كابت الحريات، محتقر المرأة، مناقض العقل... إلخ. أو الليبرالية العقلانية التنويرية النهضوية التنموية التي أساسُها الحرية وجوهرها العدل ومبناها على التسامح والتعددية والتعايش... إلخ.

وهي منتهى الأيدلوجيات!

ومن ثَمَّ يُصبح الداعي لها هو المتحضر المتفتح المستنير محب النهضة الداعي للحرية والعدل والمساواة والتسامح، وناقدُها المحذر منها محاربًا لكل تلك القيم داعيًا إلى نقيضها!

ولأن كثيرًا من المسلمين يتشكل فكرهم مما يسمعونه ويشاهدونه ويقرءونه في الإعلام دخل ذلك التمويه عليهم.

ونحن لا ننكر مطلقًا ما وقع من انحراف في الأمة الإسلامية أدَّى إلى تخلفها وتفككها وهوانها وضعفها حتى صارت مضرِبَ المثل في ذلك، وصارت حكومات الدول الكافرة التي لم نسمع بها ولا ذكرَ لها على الخريطة تأتي فتحط رحالَها في دولِ الإسلام لتأخذ نصيبها من الغنيمة الباردة، ولا ننكر على من ينتقد تلك الانحرافات بل نحن أعظم إنكارًا لذلك منه، لكننا نخالف هؤلاء العلمانيين والليبراليين في تصور المشكلة وأسبابها وعلاجها.

فنحن نعلم ونثبت يقينًا أن الإسلام الذي بُعث به النبي محمد صلى الله عليه وسلم براءٌ منها، بل هو أعظم محذر منها ومنكر لها، وهو أحسنُ بيانًا وأصدق قيلًا في إبطالها، فمن ثمَّ إذا كانوا هم يربطون التخلف والانحطاط بالتمسك بالإسلام فنحن نرى النقيضَ تمامًا، بل سببُ التخلف الرئيس: الانحراف عن الإسلام الحق، ولقد كانت الأمة في قمة الحضارة والتمكين وقتَ تمسكها بدينها الحق وما ذَلَّتْ إلا لما فقدت مصدر عزه ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 139]

فنحن نوافقهم في كون تلك المظاهر سببَ التخلف، ونخالفهم في كونها منسوبة للإسلام الحق، والقيمُ المتفقُ عليها كدعائم للحضارة والتقدم كالحرية والتسامح والعدل والشورى ونحوها فالإسلام أعظم راعٍ لها مُبين لها محذر من مخالفتها.

وهنا أقول: إنَّ نَقدنا لـ(الدولة الثيوقراطية، وبديلها العلمانية، والليبرالية، والدولة المدنية) نقد للنظرية (المتمثلة في الفكر المحرك) وكذلك في التطبيق من أصحابها. أما نقدنا لمظاهر الانحراف في الأمة الإسلامية فلا ينسحب إلى الإسلام؛ إذ هو سابقُنا إلى نقد ذلك والتحذير منه والدعوة إلى نقيضه،وهذا مكمن الفرق.

فنحن ننكر:

1- الدول الثيوقراطية.

2- بديلها العلمانية، والليبرالية، والدولة المدنية (نقصد ما فيها من الباطل أما ما فيها من الحق فنحن نُقِرُّه، ونُثبت قطعًا أن الإسلام حثَّ عليه و دعا إليه بأحسن حجة وأتمّ بيان قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: 33]

3- محاولة التلفيق بين الإسلام وتلك المذاهب العلمانية بحركة إصلاح ديني يصير الإسلام بها (بروتستانتية - دينًا روحانيًا) لا يتعدى المسجد، وهو ما يسمى بالإسلام العصري، التنويري، وعلى رأي ساركوزي-الرئيس الفرنسي السابق-: (الإسلام الفرنسي)؛بتوظيف الإسلام لمصلحة الغرب ليكون جزءًا من الحل لديهم بدلًا من كونه جزءًا من المشكلة.

4- مظاهر الانحراف في الأمة الإسلامية والتي كانت سببًا في التنفير من حُكم الإسلام، وفتحت الباب لدخول العلمانية للعالم الإسلامي.



وأزيدُ – وهو المهم – أن المختارين للحل العلماني كالمستجير من الرمضاء بالنار، هربوا من ظلمة فدخلوا في ظلمة أخرى، ولم يكن همهم إلى أين يهربون، بل كيف يهربون؟ فلم يهتدوا إلى البديل الأمثل، والحل الصحيح، فمثلًا جعلوا بديلَ الرهبانيةِ الإباحيةَ، وبديلَ الإكراهِ في الدين تركَ الدين بالكلية وهكذا.

وأصبحت الحضارة عندهم بين تشويهٍ بجعلِ نقِيضِها حضارةً، وحصرٍ وقصرٍ لها على بعض مظاهرها؛ كالتقدم التقني والطبي ونحو ذلك، وكمثال: جعلوا تعريةَ المرأةِ من مظاهر التقدم والحضارة، وقد جعلها الله عقوبةً كما في قوله: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: 22]. وقوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ [الأعراف: 27]. وإلى الآن أوروبا تعيش تلك الثنائية المفتعلة (دين برهبانية وتخلف)، أو (إلحاد بعلم وتقدم).

ولقد أُحدث في الإسلام انحرافات كانت سببًا في الإعراض عن حُكم الإسلام، ومسوِّغاً لدخول العلمانية، وإن أعظم مقاصد إرسال الرسل بيان الهدى بأدلته، ونقد الباطل والتحذير منه، قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: 185] والعلم المفصل بالباطل من أعظم وسائل الثبات على الحق، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: 55]، وقال عمر رضي الله عنه: "إنما تُنقض عُرى الإسلام عروةً عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية"، وقال حذيفة رضي الله عنه: "كنت أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشر مخافة أن يدركني"، ومن ذاق الجوع والخوف والمرض كان أحرص على الغنى والأمن والصحة.

ويعظم خطر الباطل إذا سمَّاه أصحابُهُ باسم الحق وسموا الحق باسم الباطل، كإبليس الذي سمى شجرةَ المعصيةِ: شجرةَ الخلدِ وملكًا لا يبلى، وكفرعون الذي قال: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: 29]، وقال: ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: 26]. فإذا الحق باطل والأباطيل حقوق، وهكذا المبطل يُزَينُ الشر لسامعه ليُغريه، ومن لم يعرف الشر يقع فيه.

فالمروجون للحل العلماني الليبرالي المُخَوفون من الحل الإسلامي يسعون في خطة خطيرة يصورون فيها أن اتباع أمر الله ورسوله مصادم لمصلحة الفرد والمجتمع وأن أحكامه ليست مناسبة لهذا العصر، تشبه ما فعله إبليس حيث صور لآدم وزوجه أن اتباعهم لأمر الله مصادم لمصلحتهما، وأن مخالفته هي التي تحقق المصلحة ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف] وكقول كفار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ [القصص: 57]، وكقول المنافقين لمن قتل في سبيل الله: ﴿ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنفال: 49]، وكقولهم: ﴿ ا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: 12].

وصدق الله إذ قال: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور]. فهي محاولةٌ من أعداء الإسلام لتغفلَ أمةُ الإسلام عن سلاحها ومصدر عزِّها وشرفها؛ ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ ﴾ [النساء: 102]



البلاء الأكبر

معتز رضا زاهر

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: 213]

عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: "كانوا أمة واحدة حيث عُرضوا على آدم ففطرهم الله على الإسلام وأقروا له بالعبودية؛ فكانوا أمة واحدة مسلمين ثم اختلفوا من بعد آدم". [الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين".

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: "كانوا على ملة آدم عليه السلام، حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض". [تفسير القرآن العظيم، لابن كثير]

فقد كان الناس إذن {أمة واحدة} على الإيمان؛ فاختلفوا بأن آمن بعضهم وكفر بعض {فبعث الله النبيين} إليهم برسالة التوحيد والإيمان {مبشرين} مَن آمن بالجنة {ومنذرين} مَن كفر بالنار {وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكُم} ويفصل بينهم ويكون إليه المرجع {بين الناس فيما اختلفوا فيه} من الدين {وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه} أي الكتاب {من بعد ما جاءتهم البينات} الحجج الظاهرة على التوحيد {بغيًا} من الكافرين {بينهم}، أي: بغيًا على الدنيا وطلب مُلكها وزخرفها أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس وحسدًا منهم فكفروا به. [تفسير الجلالين، وابن عباس، والدر المنثور؛ بتصرف]

يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: "**إني خلقتُ عبادي كلهم حُنفاء، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم وأمرتْهم أن يُشركوا بي ما لم أنزِّل به سلطانًا**".[رواه مسلم. فاجتالتهم: فأضلتهم]

1/ ففي هذا الحديث أن الله عز وجل فطر الناس حنفاء موحّدين مخلصين له الدين، يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: 30] قال الإمام ابن عبد البر: "وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الإسلام".[فتح الباري، لابن حجر] ويؤكد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فيقول: "**ما من مولود إلا يُولد على الفطرة، فأبواه يُهَوّدانِه أو يُنَصّرانِه أو يُمَجّسانِه**".[رواه البخاري ومسلم]

2/ والحنيفية هي الدين؛ وليس بعد الحنيفية إلا الضلال عن الدين، وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في كتابه؛ فعدّ الله تعالى المقابل للحنيفية هو الشرك بالله؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يونس: 105]

3/وأن تحريم ما أحلّ الله يناقض الحنيفية وهو شرك بالله وعبادة لغيره، وكذلك أيضًا تحليل ما حرّم الله، وعن عديّ بن حاتم -وكان قديمًا على النصرانية- رضي الله عنه قال: أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم وفي عُنقي صليب من ذهب فسمعته يقول: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: 31]. قلت: يا رسول الله إنهم لم يكونوا يعبدونهم"! قال صلى الله عليه وسلم: "**أجل, ولكن يُحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه, ويُحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه, فتلك عبادتهم لهم**".[السنن الكبرى، للبيهقي]

فالأصل إذن أن الله سبحانه خلق العباد على توحيده فجاءتهم شياطين الإنس والجن لتضلهم عن هذا الطريق؛ فمن الناس من ثبت ومنهم من فُتِن، وهذا هو البلاء المبين الأكبر في هذه الحياة ليعلم الله الصادق من الكاذب والمؤمن من الكافر، وعلى أساس ذلك يكون الخلود، إما في الجنة وإما في النار.

ومن رحمة الله تعالى بخلقه أنه أرسل لهم الرّسُل والأنبياء جميعهم بالدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك والكفر الذي وقع فيه كثير منهم؛ حتى يرشدوهم إلى الصراط المستقيم ويذكروهم بفطرتهم السليمة ويحذروهم من مسالك الشيطان ويقيموا عليهم الحجة؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: 36]

فهي رسالة واحدة واضحة، رسالة كل رسول إلى كل أمة: عبادة الله واجتناب الطاغوت؛ ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة: 256] فلا يكفي واحد من الاثنين؛ فلا يكفي الإيمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت واجتنابه، والعكس صحيح.

فهما فريقان لا ثالث لهما: الذين آمنوا، والذين كفروا؛ قال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: 257]

وكل فريق من هذين الفريقين يقاتل في سبيل ما يؤمن به؛ قال جلّ في علاه: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: 76]

طريقان واضحان لا ثالث لهما: إما طريق الله أو طريق الطاغوت، إما طريق الأنبياء والوحي والشرع، أو طريق شياطين الإنس والجن والأهواء.

لذلك فجميع الأنبياء جاءوا برسالة مشتركة واضحة لا لبس فيها؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**الأنبياء إخوة لِعَلّات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد**".[رواه البخاري ومسلم] وأولاد العَلَّات هم الإخوة لأب من أمهات مختلفة، والمقصود أنهم متفقون في الدعوة إلى التوحيد، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف لتناسب زمان ومكان كل قوم؛ قال تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 25] وقد قال كل نبي لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 59، 65، 73، 85 – هود: 50، 61، 84 – المؤمنون: 23، 32] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك الله**".[رواه مالك]

وهذا هو الإسلام العام، الذي يعني التوحيد؛ فها هو نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: 72] ونجد إبراهيم ويعقوب عليهما السلام يوصيان أبناءهم بالتمسك بالإسلام: ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: 132] وقالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام عن قرية لوط وبيته: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: 36] وقال سليمان عليه السلام في كتابه إلى سبأ: ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: 31] ودعا سحرة فرعون الذين آمنوا ربهم قائلين: ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: 126] ودعا يوسف عليه السلام الله تعالى قائلًا: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ [يوسف: 101] وحواريو عيسى عليه السلام يشهدونه على إسلامهم: ﴿ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 52]

فهو دين واحد فقط، ومَن أتى اللهَ يوم القيامة بغيره فهو خاسر؛ قال الله: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: 19] وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85]

أما الشرائع فقد خُتِمت بالإسلام الخاص وهو أحكام الشريعة التي جاء بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والتي جعلها الله الخاتمة إلى قيام الساعة؛ لذلك جعلها صالحة ومصلحة في كل مكان وزمان، ونبي هذه الشريعة هو خاتم الأنبياء، وكتابها القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية؛ قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: 3]

"أحكام الشريعة صالحة ومصلحة في كل مكان وزمان"

لذا لما سأل جبريل عليه السلام الرسول الكريم عن معنى الإسلام قال له صلى الله عليه وسلم: **"الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا"**. [رواه مسلم]

فذكر له أولًا التوحيد الذي هو الإسلام العام الذي جاءت به جميع الأنبياء، ثم الإيمان بالرسول الذي بعثه الله. وهذا هو الجانب الاعتقادي. ثم ذكر له الأركان الرئيسة في جانب الشريعة الإسلامية أو الإسلام الخاص، وهي الصلاة والزكاة والصيام والحج.

هذا هو الاختبار الأكبر في هذه الدنيا، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الفائزين فيه والناجحين.



الباطنيون الجدد

رامي عفيفي

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فقد سجل لنا القرآن في كثير من آياته طبيعة الصراع بين الحق والباطل، وسجل لنا كذلك طرفي هذا الصراع وأهله؛ فوصف منهج أهل الحق وأبان طريقهم، وأرشد عباده وأوصاهم أن استقيموا على الصراط ولا تعوجوا، ولم يكتفِ الحق تبارك وتعالى بتبيين سبيل الحق فقط؛ بل أرشدنا ونبهنا لخطط أهل الزيغ والضلال؛ فبين صفاتهم وأظهر سُبلهم وطرق غوايتهم؛ فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: 55]

ومنذ أن عرف الشرك طريقه إلى عقيدة البشرية من لدن نوح عليه السلام، وهو في تلوُّن دائم، يأتي أهل كل زمان بما يتناسب مع ثقافاتهم وأعرافهم، وتنوعت لذلك سبل الغواية وتشعبت؛ بيد أن هذا التنوع لم يكن تنوعًا في الغايات والمقاصد؛ بل ظل تنوع وسائل وأساليب، تهدف في الأساس لصد البشرية عن سبيل الفلاح ونور الوحي المعصوم.

والمتأمل للعالم المعاصر يستطيع أن يحدد ملامح الأصول الفكرية والعقدية التي تشكل رؤيته الآن، وإيجازها في تيارين رئيسين يتجاوزان ما يُعرف بـ"**التدين التقليدي**" أو "**التدين السماوي**" (أقصد به الديانات التي تعتقد بوجود رب مباين عن خلقه، خالق ومدبر لهذا الكون يستحق التأليه والعبادة)، وهما:

1- التيار المادي (الإلحادي).
2- التيار الباطني (الروحاني).

ولقد مر كل تيار من هذين التيارين بمراحل عدة حتى تبلور في صورته النهائية التي عليها اليوم؛ فأما التيار الأول فقد ظهر بوضوح وانتقل من الأفكار التنظيرية إلى الآليات التنفيذية على أرض الواقع منذ الثورة الفرنسية حتى وصل إلى صورته العلمانية الحالية.

وأما التيار الثاني (وهو المعنيّ به هذا المقال) فهو ضارب بجذوره في عمق التاريخ؛ ولعل أبرز صوره تلك التي تظهر بجلاء في الفلسفات الباطنية الشرقية من (طاوية وهندوسية وبوذية). وهذا التيار -في نظري- أشد خطورة على الأديان -التقليدية- لأنه يندس ويتسلل بخفاء فيزاحم معتقداته ليفسدها من داخلها، لا أن يصادمها كما يفعل التيار الأول. (لم يخلُ دين من الأديان السماوية من تسلل أفكار باطنية فلسفية إليها؛ من غنوصية النصارى لكابالا اليهود انتهاء بالفرق الباطنية الإسلامية من قرامطة وشيعة ونصيرية وصوفية... إلخ)

إلا أن هذا التيار لم يتجلَّ ويظهر بوضوح (أقصد بظهوره أن أصبح في متناول العامة يمارسونه دون دراية كما سيأتي) إلا في القرن المنصرم، وذلك بعد أن نُقلت فلسفاته من الشرق إلى الغرب عن طريق جمعيات باطنية صريحة، إضافة لمن كان قد تأثر بها من أصحاب الديانات السماوية.

وتجلى في أخطر صوره في السنوات الماضية عندما تبنت هذه الفلسفات حركات منظمة (أشهرها حركة العصر الجديد New Age movements) التي شكلت بوتقة انصهرت فيها جل الفلسفات الباطنية القديمة لتنقلها نقلة نوعية في غاية الخطورة، وذلك عبر:

- نقلها عن طبيعتها الاستسرارية وطرحها للعلن وتقديمها للجمهور عن طريق إخراجها من إطارها الفسلفي الباطني، وطرحها في قوالب عصرية وبرامج حياتية تتماشى مع روح هذا العصر -هذا من جهة-؛ وبما يضمن عدم مصادمتها للمعتقدات الدينية صراحة -من جهة أخرى-؛ فقُدمت في صورة برامج تدريبية، وتنمية القدرات البشرية الكامنة، وأساليب تأمل، ورغبة في نشر ثقافة الحب والسلام، والوصول إلى السلام الداخلي.

- التدليس باستخدام مصطلحات علمية فيزيائية، أو باستخدام مصطلحات شرعية دينية للتدليل على معتقدات باطنية فلسفية.

فظهرت ممارسات وتطبيقات مختلفة تنبني في حقيقتها على الفلسفات الشرقية الباطنية الهادفة لوحدة الوجود، (يُقصَد بالباطنية هنا الفلسفات التي تستغني عن أي مصدر خارجي لتحصيل المعرفة، وتحصيلها الباطني عن طريق فلسفات الفيض والإشراق والغنوص الهادفة لوحدة الوجود) ولكنها تُقَدَّم للجمهور في صورة علاجات وتمرينات تهدف لاستجلاب (الطاقة الكونية) من أجل صحة نفسية أو عضوية أفضل، بينما ظهرت صور علاجية تنبني في أصلها على ممارسات حياتية قديمة للطاويين والهندوس وتتماشى مع موروثهم وتصوراتهم الفلسفية والعقدية عن المثلث الفلسفي (الله – الكون – الإنسان)؛ ولكنها قُدِّمت للجمهور في شكل ممارسه عملية بعد إغفال أولي لأصلها الفلسفي الإلحادي!

و على جسر الانهزامية النفسية أمام الغرب عبرت إلينا هذه الفلسفات الوافدة ممتطية حصان طرواده تحت شعار العلم تارة والأسلمة تارة أخرى؛ فسُوّق لها في بلادنا تحت ستار العلم بشعارات مرسلة (العلم أثبت - الدراسات أثبتت)، وهي أبعد ما تكون عن كونها علمًا (تعرف هذه الممارسات من قِبَل المجتمعات العلمية بالعلوم الزائفة pseudoscience)، **أو تحت ستار الأسلمة بشعار (هذه بضاعتنا ردت إلينا)، ومحاولة الاستدلال الأعور وليّ أعناق نصوص الوحي المعصوم لتتوافق مع مرادهم!**

فاجتاحت البلدان الإسلامية الآن وتحت ستار التنمية البشرية -مصطلح التنمية البشرية مصطلح فضفاض يحمل معاني حقة وأخرى باطلة، فلا يُفهم هنا الاعتراض على ما كان له علاقة بتطوير القدرات، أو ما له علاقة بتنمية المهارات؛ كدورات التواصل بين الأشخاص وتنظيم الوقت وحسن التخطيط...إلخ فإن أثره ملحوظ لا يُنكَر- ما يسمي بعلوم الطاقه بأنواعها المختلفة؛ فلا يكاد المرء يفتح صفحة من صفحات المجلات ولا يطالع جريدة من الجرائد التي تتحدث عن الصحة، أو يشاهد برنامج على الفضائيات إلا ويجد تصريحاً من قريب يمجد هذه الممارسات، أو تلميحاً من بعيد يؤيد علوم وأسرار الشرق الأقصى وفضل علومه في هذا الباب؛ وتسارع القنوات الفضائية والمواقع الإلكترونية على شبكة الإنترنت بنشر أساليب هذه الفنون وطرق استخدامها وبيان تأثيرها.

فانتشرت دورات العلاج بالطاقة، وانهمرت على الشباب من كل حدب وصوب، دورة هنا للعلاج بطاقة "الريكي"، وأخرى هناك للعلاج بطاقة "البرانا"، ونظام "ماكروبايوتك غذائي" وتصميم "فونج شوي" للديكور، وطاقة المكان، و"قانون جذب" القدر...إلخ

بل وازداد الأمر خطورة بظهور هذه الممارسات في الأماكن العامة؛ كالمتنزهات والحدائق العامة؛ فيجلسون حلقات يمارسون تأملات استجلاب الطاقة الكونية، ويجلسون جلسة اللوتس البوذية! مما يثير فضول العامة ويدفعهم لتقليدهم دون وعي حقيقي بما يتدسس خلف هذه الممارسات من تصورات و معتقدات!

إن هذه الممارسات -شأنها شأن فلسفتها الأم التي منها نشأت- تكرس للتمحور حول الذات البشرية وتضخيمها والاستغناء عن أي مصدر خارجي لتحصيل أي شيء؛ فالمعرفة والعلم والحقائق إنما تدرك من العقل الكلي؛ كفلسفة الفيض والإشراق، وقضاء الإنسان وقدره إنما هو في يديه ونتاج قدرته على جذب ما يريد إليه [راجع سلسلة إصدارات كتاب (السر –the secret)، لمؤلفته الاسترالية روندا باير وعدد طبعاته العربية ليتبين لك مدى انتشار هذه الضلالات!] وإذا مرض في هذه الحياة فبيده "**الشفاء الذاتي**" عن طريق استجلاب الطاقة الكونية من الكون، وهكذا لا تدع هذه الممارسات مجالاً من المجالات إلا وترده للقدرة البشرية الداخلية للإنسان وطاقته غير المحدودة! ولا عجب إذ يصرحون: "أنت تحمل بداخلك الشرارة الإلهية"!

لا يتسع مثل هذا المقال لبيان خطورة هذه الممارسات وأصولها الفلسفية والعقدية التي تستند إليها [يمكنك مطالعة موقع سبيلي للمزيد www.sabeily.com]، وإنما هي صيحة نذير لأهل الفضل من العلماء وطلبة العلم، قبل أن تستفحل هذه الممارسات وتعصف بعقيدة المسلمين، وتجد بين الشباب سبيلاً يصعب اجتثاثها بعد ذلك.

"فأداءً لبعض ما أوجب الله من البلاغ والبيان، والنصح والإرشاد، والدعوة إلى الخير، والتواصي به، والدلالة عليه، وبذل الأسباب لدفع الشرور عن المسلمين، والتحذير منها، حتى تكون أمة الإسلام كما أراد الله منها، أمة متماسكة، مترابطة متراحمة، تدين بالإسلام: اعتقاداً، وقولاً، وعملاً، مستمسكة بالوحيين الشريفين: الكتاب والسنة، لا تتقاسمها الأهواء، ولا تنفذ إليها الأفكار الهدامة، ولا يبلغ منها الأعداء مبلغهم كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [آل عمران: 101] وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: 153]. رأيت لذلك تحرير هذا النصيحة تذكيراً بفرائض الدين، ولإنقاذ المسلمين مما أخذ بعض المفتونين الذين سقطوا في الفتنة". [درء الفتنة، للشيخ بكر أبو زيد، رحمه الله]

هذا الإنسان! وذلك البيان!

وجدان العلي

هذا الإنسان! منذ أطلَّ من شُرْفَة البدء صغيرًا، إلى أن تبلى فيه الحياة = وهو يُحاولُ ملامسة هذا الوجود، ومصاولةَ أسراره، ومكاشفةَ غيوبِه، وقراءتَه قراءةً دائمةً لا تنقضي، يتفاوت الناس فيها فهمًا ووعيًا وإبانةً، تفاوتًا لا ينتهي!

وهذا العالم! كله مبنيٌّ على أساس "**الكلمة**"، ومتى استقام للإنسان هذا الأصل الزكي، وتلقَّاه بسُقيا الحب والرعاية، وكدِّ التحصيل، وتخليةِ النفس من أوشاب العُجمة = كانتْ رؤيته لهذا العالم وناسِه، ولتلك النفوس وأطوائِها، أوسعَ حدقةً وأرحبَ أُفُقًا، وأكثرَ التصاقًا بالفطرة الإنسانية في صفائها الأول العتيق!

حتى إنه ليطالع الكلامَ -لم يبصره قبلُ-، ويسمع بالقصيدة -لا يعرفُ صاحبَها- فيبصر وجهَه، وقسماتِ روحه، ومعالمَ نفسه، وباكيًا كان عند كتابته أو مُتَصَنِّعًا، عابسًا أو متجهمًا، خائفًا يأتي ما يأتي على عجل، أو مطمئنًا لا يستخفُّه شيء، ذا دخيلةِ سوء، أو خبيئة خير، وما له به من علمٍ إلا ما قرأ من بيانه! ... وما ذاك إلا لأن البيانَ-ملفوظًا ومكتوبًا- "**رَشْحُ الرُّوح**" الذي لا تخطئه بصيرةُ مَن تَضَلَّع بأسراره، وأحسنَ الإصغاءَ لوقعه على النفس البشرية.

وما مررتَ بكلمة اليهودية زوجِ كعب بن الأشرف، وهي تسمع صوتًا مجردًا من ذي قرابةٍ غير عدو "**أخ من الرضاعة**"، في هدأة الليل .. فتأبى إلا أن تقول: "أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم"!

وتلك كلمة غريبةٌ! تدلُّك على هذا المعنى الجليل!

فهذا الصوت المجرد، باديَ الرأي، تلاقتْ أصداؤه الْمُوحِشَةُ في تلك الروح المتوهجةِ المغموسة في تنُّور الخوف والحذر والحيطة الذي نضجت فيه نفسُها اليهودية، في مجتمعٍ ثَقِفَ معنى الغدر، فعرف بوادره ونفْثَه الغامضَ المميت، وهمسَه الفاتِكَ، وكلَّ ما يتصل به ولو بسببٍ خفيٍّ بعيد!

إنه البيان! أخصُّ خصائص النفس البشرية التي تكشف معدنَها وتُريك حقيقةَ ما بها، بلا حجاب أو كساء!

وإذا علمتَ هذا الأصل الشريف، علمتَ أن محاولاتِ صرف الناس عن البيانِ=هي في الحقيقةِ محاولات "لقتل" معنى "الإنسان" فيهم، مما يجعل تفسيرَهم للنفوس والدنيا والكون والوجود وحقائق الأشياء والألفاظ تفسيراً شائهًا مختلاً، فيكون تواصلهم مع العالم تواصلاً ناقصًا، متخلفًا عن الأخذ بأسباب الحضارة التي هي "التفاعل الحيُّ التامُّ للإنسان مع الكون ومن فيه"؛ لأن كل ما ترى من بنيان وإنسانٍ وحيوانٍ، وما غاب وما حضر، وما سرى في زوايا العقل من أفكار ورؤًى وأحلام =كله"كلماتٌ" في الحقيقة، يفسرها بعض الناس تفسيرًا صحيحًا، ويتعامل معها تعاملاً مستقيمًا لاستقامة البيان، وحُسْن الإصغاء لكلمات الوجود، ويلتوي تفسير بعضهم لها التواءً يهوي بصاحبه إلى دَرْكِ العُجْمَة! ولهذا تفصيل طويل جدًّا!

ومن هنا كان هذا وجهًا من وجوه النعمة الإلهية الجليلة في معجزة القرآن؛ فاتصال الإنساني بالبيان الإلهي الذي وَسعَ الكونَ والحياة والمصير وحركة النفس الإنسانية=يجعله أكثر استيعابًا لحركة الكون، وأكثر فهمًا لأسراره، وأكثرَ إبداعًا ورقيًّا وجمالاً..

وانظر ذلك الفصل النفيس الذي كتبه العلامة البشير الإبراهيمي رحمه الله تعالى في "رسالة الضَّبّ"، عن شعور العربي القديم، ونفاذِ بصيرته، وتغلغُلِه في رُوح الأشياء مِن حوله، وإبانتِه الشريفةِ عن الصحراء، وما جاشت به نفسُه من روائع الفلسفة الوصفية، حتى حاز العرب مكانة باذخةً ليست لغيرهم من الأمم، في هذا الفن البشري من البيان الحي الشريف!

ولذا كان الاستخفاف بالكلام ودلالاته جريمةً حضاريةً وإنسانيةً؛ لأنك تشوه أعظم سرٍّ صار الإنسان به إنسانًا، وتحجب عنه أجلَّ نعمةٍ تصله برب العالمين، وهي نعمة القرآن العظيم!

وهذا بعضُ أسرار قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن] اقرأ الآياتِ مرةً أخرى، وانظر هذا الترابط العجيبَ، بين "الْقُرْآنَ - الْإِنسَانَ - الْبَيَانَ"؛ لتعلم عظمة هذا السر الإلهي العظيم!

ومتى انحدر البيان في الإنسان، على هذا الذي بيَّنْتُ لك، انحدر الإنسانُ في العمران، فتآكل شيئًا فشيئًا: عقلاً، وإبداعًا، وخُلقًا.. ودينًا! فهو يمر بالآيات الإلهية الجليلةِ مرور الأصمِّ صَدِئَتْ فيه أذناه، وينظر إلى هذا العالم الفسيح نظرةَ من لا يحسن يقرأ، فهو في عَمَايةٍ وحيرةٍ، ويجلس بين يدي المصحف جلوس التراب ماتت فيه الحياة، فيتلقاه بعينه لا بقلبه!



وتنهدم السنين، وتفنى القرون ويتباعد الرَّكْبُ البشري عن الطريق العتيق للصدر الأول، الذي فقه البيان، وكان القرآن فلَكَه الذي حلق فيه إلى عرش التوحيد، وفارق الوثنية الروحية والعقلية والنفسية!

فاكتمل فيه الإنسان "علمًا وعقلاً وخلقًا وإبداعًا" = كمالاً لم يزلْ يتناقص إلى يوم الناس هذا، حتى إذا تآكل الإنسان وفنيت فيه حياته، لانقطاعه عن الوحي الذي هو البيان الإلهي= أذِنَ الله للشمس بأن تشرق من مغربها، فباد العالم وفنِي العمران!

وإن شئت نورًا، فهذه بعض آيةٍ من كلام ربنا- تبارك اسمه- لو مسها قلبك، وأصغى إلى بيانها الجليل = لقال كلُّ ما فيك: إنَّ هذا الكلام ليس في مقدور أحدٍ من العالمين، وإنَّه لكلامُ رَبِّنا تقدست أسماؤه!

يقول تعالى: ﴿ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر: ١٠] فانظر إلى مجيء ضمير الفَصْل هنا "هو"؛ فإن مجيئه هنا آية بلاغيةٌ معجزةٌ تضربُ القلب بخفقات الدهشة من سمو البيان الإلهي الجليل، ولو جاءت الآية عاريةً من هذا الضمير لبَطَلَ كثيرٌ من التبكيت الذي يتضمن حضور الضمير "هو" هنا..!

فكأنَّ مكرهم هو صاحبُ الحظ التامِّ في الخسران والكساد: فمع بهرجتهم له، وتزيينهم لقباحته وخبثه الغادر، وحشدهم كلَّ طاقتهم في إذاعته، وبذل الترغيب والترهيب، والتحلية بالتغرير والخداع والكذب، والمناداة عليه باللفظ المعسول والبيان الزائف في كل محفلٍ ومشهدٍ=يكسد سوقُه، ويخيب سعيهم، وتبور سِلعتهم، وينصرف الناس عنها وعنهم، ولا يبقى عليها سوى أطلال الخسران وأسراب الذباب!

فمجيء "هو" هنا مجيءُ "الاختصاص والقَصْر"، باعتبار البوار صفةً راسخة لازمةً لزومَ القيدِ الفولاذي الذي لا ينفك عنه هذا المكر، مهما فعل صاحبه وفعَل!

وهكذا القرآن! كلما أنعمت النظر فيه تحيرت حيرةَ الطَّرِبِ، وتناثرتْ نظراتُ الدهشة ببريقها العابدِ من عينيك! وعلمتَ أن هذا الكلام -لا ريبَ- مُفَارِقٌ كلَّ المفارقةِ لكلام البشر الشاحب القاصر، وأنه لا طاقة لأحدٍ من العالمين أن يأتي بمثله قط، وأن النفس الإنسانية لن تنضُرَ إلا بتدبُّر هذا الوحي الإلهي العظيم، وهنالك.. يصغُر ما يكيده الكائدون، ويضمحل متلاشيًا في نظر تلك النفس التي تضلّعت من هذا المعين، فتطمئن وترتقي وهي تقول بثقة المؤمن بربه: وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ !

ومتى صِيغَتِ النَّفْسُ البشرية في هذا المحضِنِ، ونهَلَتْ من معَينه، وتشربت أنواره =كان إنسانها عصيًّا أمام عواصف الدس والمكر ونوازع الزيغ والضلال، ومتى حِيلَ بينها وبينه، كانت كالتي ترى والتي تعلم!

ولذا كان الصحابةُ الصحابة، وكان الخلوف الخُلوف!